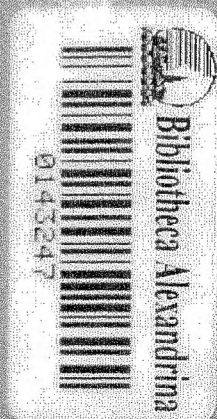


مصطفى لطفي المنفلوطي

# في سبيل التاج



دار الكتب العربية

مكتبة القاهرة العامة



مصطفى لطفي المنفلوطي

رواية  
فسيحة الشياخ

وهي خلاصة رواية تمثيلية بهذا الاسم للكاتب الفرنسي الشهير  
فيرا نسواكوفيه  
مع بعض تصرفات

دار الشرق العربي  
بيروت - شارع سورية - بلاطة درويش

# الهدايا

إلى البطل المصري العظيم

سعد زغلول

« تشرح هذه الرواية سيرة بطل من أبطال الوطنية العالية ،  
« قد جمع الله له من صفات الشجاعة والثبات والعزيمة والغيرة ،  
« والإخلاص والتضحية ما جمع لك منها ، فأذن لي أن أهدي  
« زوايته إليك ، وأن أقدم البطل البلقاني ، إلى البطل المصري  
« لتأنس روح كل منكما بروح صاحبه ، وإن باعد بينكما  
« الزمن ، واختلفت بكما الدار ، فإن تفضلت بقبول هديتي  
« وما أصيبك ضائاً بذلك عليّ ، فلتكن جائزتي عندك عليها أن  
« تشهد لي بينك وبين نفسك أنني قد وضعت لبنة صغيرة في ذلك  
« البناء الضخم الذي شدته لأمتك ووطنك وحسبي ذلك وكفى »

مصطفى لطفي المنفلوطي

أول يونيه سنة ١٩٢٠ .

في سبيل التاج

## مقدمة

لحضرة الكاتب الشهير : حسن الشريف

انصرفت عقول الكتّاب والمفكرين في هذه الأيام ، وفي جميع البلاد إلى الاشتغال بالمسائل السياسية والمشاكل الاجتماعية التي أوجدتها الحرب الأخيرة وانصرفت الأقلام وراء العقول تحاول إنارة السبيل لقادة الشعوب علهم يستطيعون إقالة هذا العالم من عثرته .

"ولقد كان من جراء ذلك أن أهمل الأدب إهمالاً نزل به إلى مرتبة دون التي كان يشغلها في نفوس القراء والمؤلفين . فانحطّ التأليف الأدبي انحطاطاً قد يستمر ما استمرت حالة العالم على ما هي عليه .

ولم يكن تأثير هذه الأزمة الأدبية في مصر بأقل منه في غيرها ، إذ انصرف معظم الأدباء عن فهم ، وعلى الأخص في السنة الأخيرة إلى الاشتغال بقضيتنا السياسية الكبرى ، فانقطع ظهور الكتب الأدبية ، أو كاد ، وأوشكت مسارح التمثيل أن تغلق أبوابها لقلة ما يقدم إليها من الروايات . ورأت صحف

الأدب أن لا نقاء لما إلا إذا ولت وجهها شطر السياسة فوقفت  
جلّ أعمدها على شرح وتأويل ما يحمله إلينا الرق من الأخبار .  
وبذلك وقفت نهضتنا الأدبية ، منتطرة أن تمر العاصفة وتصمو  
السماء فتستأنف سيرها ويعود إليها عزها ونشاطها ، بيد أن  
العناية الساهرة على الفنون قد أبت أن تدبل شجرة الأدب في  
مصر ولما تينع أرهاها ، فلم تدع السياسة تستأثر بأقلام جميع  
الكتاب ، بل أبت للأدب أئمة وأنصاره ، فلم يؤيسهم شغف  
الجمهور بسياسة العالم وانصرافه عن كل ما عداها ، وظلوا  
رافعين لواء فنهم في وسط الزواج والأعاصير عالين أن الأدب  
أفيد<sup>(١)</sup> غذاء لروح الأمة وعقلها . وأكر مهذب لأحاسيسها  
وشعورها .

وفي طليعة هذا النفر من أئمة الفن وخدامه ، لا أتردد في  
ذكر اسم السيد « مصطفى لطفي المنلوطي » الذي لم يبخل  
على قرائه العديدين<sup>(٢)</sup> بأوقيات فراغه فوقفها على الكتابة  
والتأليف ، ولم تحمل أعمال وظيفته الحكومية بينه وبين أن يخرج  
للناس بضعة مؤلفات قيمة آخرها هذه الرواية الشيقة الممتعة  
« في سبيل التاج » التي تقدم اليوم طبعتها الرابعة<sup>(٣)</sup> إلى جمهور  
القارئ .

فرانسوا كوبيه مؤلف « في سبيل التاج » شاعر عرك صروف

(١) يريد : أكثر فائدة ، فإن العمل الرباعي لا يصاغ منه « أفضل التفضيل »

(٢) يعني الكثيرين ، واستعمال « عديد » بمعنى « كثير » خطأ شائع .

(٣) هذه الطبعة الأخيرة هي السادسة عشرة .

الزمان وحس بأصبعه مصائب الإنسان ، فلم تزد قلبه مناظر  
الوُس والفاقة إلا ليلاً وحنناً ، حتى إن القارئ لا يرى في  
شعره إلا عرة حارة أرسلتها عيابه إشفاقاً وحنواً على الذين  
تخطتهم السعادة وغضبت عليهم الحياة ، حتى لقبه عارفوه بحق  
« معري المنكودين والناسين وشاعر الضعفاء والمحزونين » .

ولد كوبيه سنة ١٨٤٢ ، ولم تمكنه بنيته السقيمة من تكميل  
دراسته فانقطع عن تلقيّ الدروس في معاهد العلم ، وانصرف  
إلى قراءة الكتب والاطلاع على أوضاع الأقدمين ، وكان يشعر  
بميل شديد غريزي إلى الشعر ، فنظم منه بضع قصائد لم تصادف  
إعجاباً من الذين أسمعهم إياها ، فرأى أن النار أحق بها من  
المطبعة ، فأحرقها ، وطلق الشعر وحرر الأدب . وسعى حتى  
حصل على وظيفة في الحكومة استولى عليها ظناً منه أنه لم يخلق  
لصناعة القلم وأن رغبته في الشعر ماهي إلا نرعة مفتون تصبو  
نفسه إلى ما لا قل له به ولا طاقة له عليه .

بيد أن الفطرة ما لبنت حتى غلبت اليأس في نفس الشاب ،  
فعاد إلى القصائد ينظم منها اليوم ما يمزقه الغد ، حتى وفق لكتابة  
« صندوق الغايا المقدسة » ( Le Reli Puaire ) ونشره بين  
الناس فصادف رواجاً وإقبالاً شجاعاً على الاستمرار والمثابرة ،  
وزاده تشجيعاً أن صارت بعض منظوماته تتلى على المسارح وفي  
الحفلات . وما زالت شهرته تنمو حتى اهتمت شأنه إحدى  
الممثلات الشهيرات « مدام أجار » ورأت فيه قابلية للتأليف  
التمثيلي ، فنصحت إليه بكتابة شيء للمسرح ، فعمل بنصيحتها

وكتب « عابر السيل » ( Le Passant ) وهي رواية ذات «معدل واحد» ما كادت تظهر حتى تحافظتها المسارح ومثلتها «سارا برنار» فطار صيت المؤلف الشاب وذاعت شهرته وأقبل عليه مديرو المسارح يلتسمون منه المزيد .

ومن سنة ١٨٦٨ نشر كتباً شعرية متناوعة أهمها «المودات» ( Intimités ) و «اعتصاب الحدادين» و «المواضعون» وبعض قصص نثرية منها «المعجم» ( Jeunesse ) و «شبونيه» ( Tonsune ) وكثير من الروايات التمثيلية ، ونحصر بالذكر منها «عواد كريمون» ( Le Luthier de Grémone ) و «مدام ده مانتون» و «سيفير ونورييلي» و «في سيل التاج» .

وفي عام ١٨٨٤ انتخب عضواً بمجمع علماء فرنسا . ثم انكب على السياسة وسار فيها شوطاً بعيداً كاد ينسيه الشعر والأدب . وتوفي سنة ١٩٠٨ وهو رئيس فخري لجمعية الوطن الفرنسي (١) .

هذا ملخص حياة ذلك الشاعر النابغة الذي امتاز على أقرانه بأنه لم يقلد أحداً من الأوائل ولا المعاصرين «والتقليد يكاد لا ينجو منه شاعر من الشعراء» وبأن معظم المواضيع التي طرقتها كانت إلى عهده جديدة لم يتقدم إليها قبله أحد من المؤلفين . ولقد قال عنه أناتول فرانس ما معناه :

«إن نفثات قلم هذا الشاعر قد أثرت في جميع القلوب

---

(١) النسب إلى فرنسا : فرنسي .



وتمكنك منها ، لأن أساسها الطبيعة ، وأحسن ما يرع في الكتابة عنه ويصل فيه إلى أعلى طبقات البلاغة ما كان له مساس بالمشاعر والأخلاق الاعتيادية والحقائق الواقعة . وهذا النوع من الكتابة لا يتيسر إلا لأصحاب الأدواق السليمة والدكاء المتوقد الخارق ، وهو يحتاج إلى مهارة فائقة وبراعة زائدة ، فإن أقل خطأ فيه لا يلبث أن يبدو للعيان مجسماً ، وإنه وإن كان في استطاعة كل إنسان مهما كانت منزلته من العلم أن يفهم هذا الشاعر ويتأثر بأغراضه ومراميه ، ولكن لا يستطيع <sup>(١)</sup> أن يسبر كنهه ويتلوق طعم أدبه إلا من ررق خطاً واهراً من العلم والذوق السليم ، وبالجملة فقراء هذا الشاعر العظيم كثيرون جداً ومن جميع الطبقات ، ولكن قراءه الحقيقيون قليلون .

• • •

أما رواية « في سبيل التاج » التي نحن بصدددها فمأساة شعرية تمثيلية وصفها المؤلف في سنة ١٨٩٥ وأراد أن يجاري بها عميدي الشعر التمثيلي في القرن السابع عشر « كورني وراسين » وهي رواية أخلاقية بطلها فتى تعارضت في نفسه عاطفتان قويتان حب الأسرة وحب الوطن : فضحتى الأولى فداء للثانية ، ثم ضحتى حياته فداء لشرف الأسرة ، ولقد تجلت في هذه المأساة عبقرية الشاعر ومواهبه الكبيرة ، فالأسلوب سهل ممنع ، والأفكار

---

(١) هذا التعبير غير معروف في العربية ، وهو من الأخطاء الشائعة على السنة الكتاب .

متسلسلة متماسكة ، والوقائع جلية واضحة . وأحلاق أشخاص الرواية تسهرها أقوالهم وحركاتهم فلا عموض فيها ولا لإهام .

ولقد ذهب النقاد في تقدير هذه المأساة مداها شئ حتى قال بعضهم أنها خير ما أخرج للناس من عهد راسين إلى يوم ظهورها .

قال الأستاذ « إميل فاجيه » العضو بالمجمع العلمي الفرنسي عن هذه الرواية في الجزء الثالث من كتابه « آراء في التمثيل » ما معناه :

إذا نظرنا إلى ما في الفصول الثلاثة الأولى من القوة والمتانة والوضوح مع البيان والبلاغة وحسن التصوير ، أمكننا أن نحكم بأن هذه الرواية تتمثل إلى ما شاء الله بدون أن يعلمها الجمهور أو يشعر بسأم من سماعها وأن « فرانسوا كوبيه » بكتابته للفصل الثالث منها على الأخص قد ضمن للذكراء الخلود في ذاكرة الأجيال المقبلة وهو الفصل المعنوي في التعريب بعنوان « الحرمة » .

وقال الأستاذ « جول لومتر » العضو بالمجمع العلمي الفرنسي في الجزء التاسع من كتابه « خواطر في التمثيل » بعد أن أطنب في وصف شاعرية كوبيه وفي تقدير مواهبه : إن رواية « في سبيل التاج » لمي من صنع فتيقدير وشاعر عظيم ورجل ذي ضمير حي وقلب كبير . وإذا كان فيها بعض النقص فهذا النقص لم يخل منه كورني ولا فيكتور هوغو ولا غيرهما من كبار الفنانين .

وقال في موضع آخر من نفس الكتاب : إن المشاهد لتمثيل

رواية « في شبل التاج » ليشعر منذ المنية الأولى براحة واطمئنان ثم لا يلبث حتى يتأكد أنه سيشاهد عملاً متقناً وفناً نظيفاً ، ولقد يكرن أحسن ما في القطعة تنسيق الأفكار وتحليل العواطف وترتيب الحوادث وتصوير النفوس والأشخاص .

هذا رأي كبيرين من زعماء الحركة الأدبية في فرنسا نورهما يعلم القراء منزلة هذه الرواية من نفوس الأدباء في الغرب ومنتخب تقديرهم لمؤلفها .

ولقد تناول السيد مصطفى لطفي المنغلوطي هذه المأساة ونقل موضوعها إلى اللغة العربية في قالب روائي جميل بعد أن أضاف إليها أشياء وحذف منها أخرى وأخرجها لقرائه قصة يستهوى أسلوبها القلوب وتسترعي وقائعها الألباب بقلم عذب وعبرة رقيقة وديباجة بدعية لا تطيل الكلام في وصفها لأن قراء العربية يعرفونها لهذا الكاتب العظيم ويعترفون له بها ، ولم يفته أن ينقل إلى العربية قطعاً كاملة من الرواية يستطيع القارئ أن يتيين منها قوة المؤلف ، ومع أن الرواية ملخصة تلخيصاً فقد استطاع الكاتب بمهارة فائقة أن يصور الروح الأصلية للمؤلف تصويراً مؤثراً وأن يملك من نفوس قراء العربية ما ملكه فرانسوا كوييه من نفوس قراء الفرنسية .

ولا يفوتنا هنا أن نقول ان الكاتب قد اشتغل بتلخيص هذه الرواية في إبان الحركة الوطنية الأخيرة ، ولقد أوحى إليه الحوادث السياسية التي لا تزال ماثلة في الأذهان صفحات تفيض وطنية غيرة حتى لكأنه قد أفضى إلى أمته في هذا الكتاب بكثير مما

لا يستطيع كتابته في الصحف السياسية ، والحق أقول إننا كثيراً ما كنا نعتب عليه في سكوته عن الاشتراك بقلمه مع العاملين في هذه الحركة حتى قرأنا هذه الرواية فإذا روحه الوطنية الشريفة تسيل فوق صفحاتها سيلاً ، وإذا الرواية الحركة الحاضرة بجميع ظروفها ومتعلقاتها .

وبالجملة فرواية « في سبيل التاج » كتاب الوطنية الخالدة في ثوب قصة خيالية تملك لب القارئ بجمالها وتتولى تهذيب نفسه بأدائها وفضائلها ، وما أحوجتنا أن تجري الأقلام الأدبية في هذا العصر تمثل ما جرى به قلم السيد المنفلوطي في هذه المأساة المؤثرة ليتلقى النشء الحديث دروس وطنيته من طريق العواطف والوجدان ، وقلما تصل الوطنية إلى أعماق القلوب وتتغلغل في شغافها إلا من هذا الطريق .

حسن الشريف

أول يونيه سنة ١٩٢٠

## مقدمة

لا يزال التاريخ يحفظ في صفحاته حتى اليوم تلك الوقائع الحربية الهائلة التي وقعت في القرن الرابع عشر بين الدولة العثمانية والشعوب البلقانية أيام أغارت الأولى على الثانية تريد افتتاحه والاستيلاء عليها . فدافعت الثانية عن نفسها دفاعاً محمداً استمر زمناً طويلاً حتى غلبت على أمرها فسقطت في يد القوة القاهرة ودخل الترك اللقان وحولوا كنائسها إلى مساجد وفرضوا على أهلها الإتاوات الثقيلة<sup>(١)</sup> وعزلوا ملكها الذي كان يحاربهم ويناثهم وملكوا عليها ملكاً من أهلها اسمه « ميلوش » فلبثت في حكم الأتراك عهداً طويلاً عانت فيه من ضروب النذل والهوان ما يعان به كل شعب مغلوب على أمره . حتى قبض الله لها رجلاً من رجال الدين المخلصين اسمه الأسقف « أتين » عزّ عليه ضياع بلاده وسقوطها في يد أعدائها وأن تتحول فيها الكنائس إلى مساحد ونجار في أرجائها أصوات المؤذنين بدلاً من أصوات النواقيس ولا يجد المسيحيون في عقر ديارهم مكاناً يؤدون فيه مروض صلواتهم

---

(١) الإتاوة : الخراج والجزية ؛ وتقال في الوقت الحاضر ما يعرضه الغاب على المطلوب من غرامات حربية .

غير الصحاري والفلوات فأخذ يتقل في أرحاء البلاد ويمش  
بين شعوبها وقبائلها يدعرو باسم الدين مرة والوطنية أخرى ،  
ويستنهض همم الرجال للدفاع عن وطنهم وتحرير بلادهم من  
يد ذلك القاهر المغتصب حتى جمع كلمة الأمة كلها من حوله على  
اختلاف عناصرها ومذاهبها وكذلك تنفتق كلمة الأمة أمام الخطر  
الداهم والقضاء الشامل .

ثم أشار على ملكه أن يخلع طاعة الترك ويطرد رعاياهم من  
بلادهم ويمتنع عن دفع الجزية والإتاوة ويأدي بحرية البلقان واستقلاله ،  
فعبث الملك عن ذلك في أول الأمر . ثم أسلس له وأذعن لرايه ،  
ففعل ما أشار به عليه ؛ فأحقد ذلك الترك وآسفهم واستثار حقدهم  
وضغينتهم ، فوجهوا إلى البلاد البلقانية جيشاً عظيماً وافر العدة  
والعدد بقيادة أحد أباطهم العظام أرطغول باشا ؛ فنار البلقانيون  
جميعاً رجالاً ونساء للدفاع عن أنفسهم والنود عن وطنهم ،  
واختاروا لقيادة جيشهم القائد البلغاري العظيم الأمير ميشيل  
برانكومير ، فظل يحارب الأتراك عدة أعوام يدال له عليهم  
فيها ويدال عليه<sup>(١)</sup> ولكنهم لا يستطيعون اجتياز حدود بلاده  
واقترحام جبالها ، حتى عي القائد التركي بأمره ورأى أن لا جيلة  
له فيه إلا من طريق الدسيمة والكيد ، وكذلك فعل ...

---

(١) يتداولون النصر والهزيمة .

## الجالوس

اجتمع جنود الفرقة البلقانية ذات ليلة في معسكرهم يشربون  
 ويطربون ويرقصون على نغم قيثار الموسيقىار البوهيمي المسكين  
 «بانكو» الذي كان يمد إلى معسكرهم كل ليلة يغنيهم قطعاً  
 حماسية مؤثرة يذكرهم فيها بمجد وطنهم وتاريخه العظيم فيرقصون  
 على غناؤه ويطربون ويحسنون إليه بما فضل من زادهم وشراهم ،  
 ثم جلسوا بعد فراغهم يتحدثون في شأن ذلك الحادث العظيم الذي  
 حدث في بلادهم منذ أيام ، وهو موت الملك ميلوش وعزم  
 الجمعية الوطنية على الاجتماع للنظر فيمن يخلفه على العرش من  
 بعده ، فانقسموا في رأيهم قسمين : فريق يرى اختيار الأسقف  
 أتين ، وفريق يرى اختيار القائد برانكومير ، فقال الجندي  
 الروماني «أورش» ، وهو من أشياع الأسقف وأنصاره : «نعم  
 إن النصر قد تم لنا على يد قائدنا العظيم ميشيل برانكومير ، ولكن  
 من الذي مهد له النصر وأعد له عدته قبل أن يعقد له اللواء على  
 الجليش ؟ أليس الأسقف أتين ؟

من الذي ينكر أن ذلك الرجل التقي الصالح هو الذي طاف  
 البلاد من أقصاها إلى أقصاها عشرة أعوام كاملة يستنهض المهم

ويستثير حفاظاً<sup>(١)</sup> النفوس ، ويستحي ميت العرائم ، ويهيج عاطفة الثأر والانتقام في نفوس الرجال والنساء والفتيان والفتيات . ويلقي على تلاميذ المدارس في مدارسهم ، أناشيد الحرية والوطنية فيستطهرونها مع دروسهم ويتغنون بها في مسارحهم وملاعبهم ومغداهم ومراحهم<sup>(٢)</sup> ؟

من الذي ينكر أنه هو الذي علم الشعب البلقاني دروس الوطنية الشريفة العالية ، وغرس في قلوبهم أن الحياة الذليلة خير منها الموت الزؤام ، وأن الحرية حياة الأمم وروحها ، والرق موتها وفناؤها ، وأن الأمة التي ترضى بضياح حريتها واستقلالها وتقبل أن تضع يدها في يد غاصبها إنما هي أحط الأمم وأدناها وأحقها بالزوال والفناء ؟.

ولم يزل يفيض على نفوسهم من نفسه تلك الروح الوطنية العالية ، ويعلي عليهم أمثال هذه الآيات الذهبية الشريفة ، حتى صفت ضمايرهم من أدران الذل والمهانة ، وأدركوا من معنى الحياة ما لم يكن يدركه آباؤهم من قبل ، فأصبحوا كما تراهم اليوم حماة الوطن وذادته<sup>(٣)</sup> ، يبذلون في سبيله من ذات أيديهم وذات نفوسهم ما لا يبذل مثله إلا الأمم الراقية الشريفة في سبيل اللود عن مجدها والدفاع عن حريتها واستقلالها ، ويقدمون إلى

---

(١) الحفاظ : الأحقاد . واحداً حفيظة .

(٢) منداهم ومراحهم : غدوهم ورواحهم صباحاً ومساءً .

(٣) اللذاد : جميع ذائد . ذاد يلود : داغ يدافع .



الموت زرافات ووحداً<sup>(١)</sup> فرحين متهللين كأنهم ذاهبون إلى  
مراقص « فيدين » وملاعبها ، لأنهم يعلمون أن قطرات الدماء  
التي يبدونها في سبيل حريتهم واستقلالهم إنما هي المداد الأحمر  
الذي تسجل لهم به في صفحات تاريخهم آيات المجد والفخار .  
وأن الأشلاء<sup>(٢)</sup> التي ينثرونها في تربة وطنهم تم يسقونها من دماهم  
إنما هي البنور الطيبة التي تبت لبلادهم المستقبل الحر الشريف .

من منا يحفل أنه هو الذي استطاع وحده من بين أبناء البلقان  
جميعاً أن يقف أمام ملكه وقفة الأسد المصور ويصبح في وجهه  
قائلاً له : حتى متى أيها الملك الضعيف . المهين ، تبيع وطنك وأبنائه  
لأعدائك وأعدائه يبيع السلع المعروضة في حوانيت التجار بأبخس  
الآثمان وأذناها ، وإلام تضع هذه السلاسل والأغلال ، في أعناق  
أبناء أمك لتقودهم بها إلى حيث يمرغون أجباهم الشريفة تحت  
مواطئ أقدام ذلك العدو المغتصب صاغرين ضارعين ، ثم ترعم  
بعد ذلك أنك ملك عظيم جالس على عرش شريف . ولو حققت  
أمرك لعلمت أنك نحاس دنيء يبيع الرقيق في سوق النخاسة<sup>(٣)</sup> .  
بل أدنى من نحاس ، لأن النحاس لا يتجر في أبناء أمته ولا أفراد  
أسرته ! فاهتز الملك لكلمته هذه اهتزاز القصبة الجوفاء بين مهاب  
الرياح . وطأطأ لها رأسه إجلالاً وإعظاماً . ولم يلبث أن عزم  
عزمته الشريفة التي ترونها اليوم ، والتي أنقذت الوطن من العار

(١) زرافات ووحداً : جهامات وآحاداً .

(٢) الأشلاء : الأعضاء ، مفردتها : شلو .

(٣) النحاس : تاجر الرقيق ، والنخاسة حرفته .

ورفعته إلى ذروة المجد والفخار .

وهما ضج القوم جميعاً ضجة السرور والاستحسان وصاحوا :  
أحسنت يا أورش . أحسنت إحساناً عظيماً . إلا نفرأ قليلاً من  
أشيع القائد وصنائه . فإنهم امتعضوا لهذه الكلمة وغصوا بها <sup>(١)</sup> ،  
وقام احدهم واسمه لازار . وكان الحارس الخاص لقصر القائد  
وأمينه وموضع ثقته وثقة زوجته الأميرة بازيليد وطلب الإذن  
في الكلام فأذنوا له . فقال « إني أريد أن أعترض على صديقي  
أورس في كلمته التي قالها في فضل أسقفنا العظيم وأثره الجليل  
في خدمة الدين والوطن . ولكن الذي أراه وأستصوبه أن لرجال  
الدين شئونها خاصة بهم لا يحمل كرامتهم أن يتعدوها إلى غيرها  
من أعمال الحياة ، وإني أضن بأسقفنا العظيم أن تشغله مشاغل الملك  
وملاهيته عن شئون الدين التي تصبو لها نفسه طول حياته ، والرأي  
الذي أراه أن يعقد الملك إلى القائد ميشيل برانكومير ليقود الأمة  
جميعها بتلك السياسة الحكيمة الرشيدة التي قاد بها الجيش ورفعته  
إلى مناط السمك الأعلى ، فاعترضه جندي كان جالساً على مقربة  
منه وقال له « لِمَ لا ترضن بالقائد ميشيل أن تشغله مشاغل الملك  
وملاهيته عما هو سبيله من قيادة الجيش وتدبير شؤنه ؟ » فأجاب :  
إن قيادة الجيش وزعامة الملك أمران متشابهان ، لأنهما يتعلقان  
بشئون الحياة وأعمالها ، وأما الشئون الدينية فلا علاقة لها بالشئون  
الدنيوية بحال من الأحوال ، فدعوا الكاهن مستريحاً في معبده ،

---

(١) فسوا بها : أخلتهم الفضة ، كما يشرق الشارب بالماء أو الأكل ببعض  
الطعام .

مستغرقاً في صلواته وعبادته . واختاروا للملككم رجل الأمة وبطلها وحامي دمارها وحماها الأمير « برانكومير » ؛ فعلت أصوات الصاخين والصالحين . والمستحسنين والمستهجنين ، وذهب كل في صيحته المذهب الذي يراه وينشيع له .

ولإنهم لذلك اذا بصوت صارخ في وسط هذه الضوضاء يقول : « استمعوا مني أيها القوم كلمة واحدة وهي فصل الخطاب في قصيتكم هذه ولا أطلب إليكم أن تستمعوا مني سواها . فالتفت الجمع فإذا الضابط « ألبير » وهو جندي شيخ عرف القائد برانكومير صغيراً وخدمه كبيراً وعاش معه في منزله في عهد زوجته الأولى كأنه أحد أفراد أسرته . ولم يفارقه إلا منذ عامين اثنين ، أي بعد وفاة زوجته بأيام قلائل ، فأنصتوا إليه فإذا هو يقول : « أنتم تعلمون جميعاً صلتى بالقائد برانكومير ومكانتي عنده . وإني أعرف من شئونه الخاصة والعامة ما لا يعرفه أحد غيري . ولقد عرفت فيما عرفت من خلأئفه وسجاياه في خدمته . أنه أبعد الناس جميعاً عن مطامع الحياة ومظاهرها وأرغبهم عن سفاسف الأمور ودناياها ، وأنه جندي صميم معز بجنديته وشظفها وخشونة العيش فيها لا يؤثر عليها أي مظهر من مظاهر الحياة مهما علا شأنه وعلت قيمته ؛ فمن ظن منكم أنه يرضيه ويحمله بترشيحه لمنصب الملك فقد أخطأ في ظنه خطأ عظيماً ، وإن كان للأسقف « أتين » مزاحم على الملك بسين أشراف البلقان وسادته فهو غير القائد « برانكومير » ؛ فهذأت الأصوات وسكنت الضوضاء عند سماع هذه الكلمة الهادئة

الرزينة التي ينطق بها -ببندى شريف صادق ، وكادت تكون فصل الخطاب في القضية لولا أن «أورش» - وهو ذلك الجندي المشيع للأسقف والداعي له - قد سهض من مكانه مرة أخرى ونظر إلى الجندي «أبير» مبتسماً ابتسامة الهزء والسخرية ، وقال له : « نعم يا سيدي إنك صادق فيما تقول ، لم ترد حرفاً علي ما تعرف ولم تنقص ، ولكن ائذن لي أن أقول لك إنك إنما تحدثت في كلامك عن الماضي القديم الذي حضرته وشاهدته ، أما الحاضر فلا تعرف منه شيئاً ، فإن أذنت لي حدثتك عنه وقلت لك : إن الأمير برانكومير اليوم غيره بالأمس ، وإن تلك النفس العالية المترفة التي كنت تعرف بالأمس مكانها من بين جنبيه قد استحالت اليوم إلى نفس تواقة متطلعة تصبو إلى المعالي وتفتن بالعروش ، وأنه هو الذي يدعو بنفسه إلى نفسه ويرسل الدعاة في كل مكان لتأييده ومساعدته على نيل الملك » . فاستطير أبير غضباً وقال : أتريد أن تقول إن أخلاق قائدنا قد تغيرت وإنه قد أصبح رجلاً صغير النفس مبتذلاً ؟ » قال : لا . ما إلى هذا ذهبت ، ولكني أريد أن أقول : إنه قد أصبح منقاداً في شئون حياته لرأي غيره لا لرأي نفسه . وربما لو ترك وشأنه لكانت له في حياته خطة غير هذه الخطة التي ينتهجها اليوم ، فانتفض القوم واضطربوا ونظر بعضهم في وجوه بعض ومشت الهمسات بين الأفواه والآذان . وسمع الخطيب اسم قسطنطين يتردد مراراً في أفواه الهماسين ، فصاح في القوم : « أنتم مخطئون جميعاً فيما تذهبون إليه ، فإن ابن قائدنا وزهرة شببتنا وضابط فرقتنا أعلى همّة مما تظنون » فصرخ لازار : قل

من هو الشخص الذي تريد؟ فجلس أورش ولم يقل شيئاً . إلا أنه همس في أذن جندي كان بجانبه : « الزوجة الجديدة » فسُرت هذه الكلمة بين الجموع سريان الكهرباء في أسلاكها حتى بلغت مسمع الموسيقى بانكو . فبرقت لها عيناه بريق الفرح والسرور ، لأنه لم يكن موسيقاراً بوهيمياً كما زعم ، ولم يكن اسمه بانكو كما يسمونه ، بل هو الضابط المشهور إبراهيم بك أحد أركان حرب القائد التركي العظيم أرطغرل باشا وقد وجد في هذه الكلمة التي سمعها ما كان يريد أن يكون ، وعثر بالثلثة<sup>(١)</sup> التي يتحدر منها إلى أغراضه وآربه .

وما أوى القوم إلى مضاجعهم . وأخذ النوم بمعاقد أجفانهم . حتى دبّ ذلك الجاسوس المتكر على يديه وبلغ مضجع الجندي لازار حارس قصر القائد وموضع ثقتهم وأكبر أشياع زوجته وأنصارها فاضطجع بجانبه وظل يهمس في أذنه ساعة طويلة كان يردد فيها اسم الأميرة نازيليد زوجة القائد الجديدة ، حتى تمّ لهما الاتفاق على ما يريدان . ثم أسلما عيونهما إلى الكرى فناما .

---

(١) الثلثة . الثقب . والمدخل في حدار الحصن .

## قسطنطين

توفيت زوجة الأمير برانكوميير منذ عامين ، وكانت امرأة من النساء الصالحات القانتات ذوات النفوس العالية والهمم الكبرى . فورث ابنها قسطنطين عنها هذه الأخلاق الكريمة ، كما ورث عن أبيه صفات الشجاعة والعزيمة والصبر واحتمال المكاره في سبيل خدمة الوطن والأمة ، فكان خير ابن لخير أب وأم ، وكان يد أبيه اليمى ودرعه الواقية الأمانة في جميع وقائعه ومشاهده ، حتى داع صيته في جميع أنحاء المملكة وأحبه الشعب والجند حباً كاد يرفعه إلى ما فوق منزلة أبيه . لولا حرمة الأبوة وجلال الشيخوخة ومكان التاريخ . فلما ماتت أمه تزوج أبوه من بعدها فتاة يونانية اسمها « بازيليد » يقال إنها من سلالة قياصر بيزنطة « القسطنطينية » وهي فتاة جميلة ساحرة تستهوي القلوب وتجتلب الأبواب ، ذات نظرات غريبة لامعة يقضي المنفرس فيها حين يراها أنها نظرات مريبة ألفت الاختلاب والافتتان من عهد بعيد ، فنزلت من قلب القائد الشيخ منزلة لم ينزلها منه أحد من قبلها ولا من بعدها ، حتى زوجته الصالحة وولده النجيب ، فأصبح مستهماً بها . مستسلماً إليها ، لا يصدع إلا بأسرها ولا يصدر

إلا عن رأيها ، ولا يرى حلو العيش وجماله إلا بجانبها ولا يستروح راحة السعادة والهناء إلا إذا هبت عليه من ناحيتها . وكانت امرأة طموحاً متطلعة لا يعينها من شئون حياتها إلا مظاهر السؤدد والعظمة ، ولا غلب على مشاعرها وعواطفها إلا ذكرى تاريخ آبائها وأجدادها ومصارع قومها في « بيزنطية » بيد الأتراك الفاتحين . وكانت لا تزال تتحدث في مجالسها العامة والخاصة بنسوة قديمة تنبأ لها بعض المتنبئين ، ويجعلها أن كاهناً عرافاً دخل منزل أبيها وهي طفلة لعوب لا تزال تحوم حول مهدها ، فنظر إليها طويلاً ثم قال لأمها : إن ابنتك هذه ستكون ملكة عظيمة الشأن في مستقبل أيامها . وربما كان اهتمامها بهذه النبوة واحتفالها بها وتصديقها إياها هو السبب في قبولها الزواج من شيخ هرم مدبر قديماً يعنى بمثله مثلاً . على أمل أن تحقق لها الأيام على يديه آمالها وأمانها .

فظلت تغرس في نفسه هذه الأمنية الجميلة المحبوبة مدة من من الزمان وتسقيها ماء حسنها وجمالها ، حتى ملأت بها فضاء قلبه ، وشغلته بها عن كل شاغل سواها .

ولم يزل هذا شأنها معه حتى مات الملك ميلوش ، وجاءت الساعة التي تنتظرها . فهتفت به : ها قد حانت الفرصة التي كنا نرقبها ، وها قد بدأت تتحقق نبوءة ذلك العراف الخبير التي تنبأ لي بها وما هو بالكاد ولا المتخصص ، ثم زجّت به في طريق مزاحمة الأسقف أتين على الملك ، غانقاد لها ومثنى في الطريق التي رسمتها له ، وأخذ يدعو الناس لنفسه ، ويستكثر

من سواد أشياعه وأنصاره ، ويداخل أعضاء الجمعية الوطنية ويدهانهم ويتوسل إليهم أن يساعده على نيل أمنيته التي يرجوها ، مدلاً بمكانته من خدمة الأمة والوطن ، وأياديه في الذود عنهما ، وبما بذل من صحته وشبابه في مقاتلة الأعداء ومدافعتهم تلك السنين الطوال حتى اشتعل رأسه شيباً ولمست قدماه رأس المنحدر المؤدي إلى القبر .

هذا ما كان يشغل القائد وروجه في ذلك التاريخ ، أما ابنه قسطنطين فكان بمزمل عن هذا كله ، فإن وفاة أمه التي كان يحبها حباً شديداً تركت في نفسه أثراً من الحزن لا يبلى ، وملأت فضاء حياته هملاً وتكدأ ، وكان يجد بعض العزاء عن ذلك الهم الذي نزل به في حنان أبيه عليه وعنايته له ، حتى تزوج من تلك المرأة اليونانية وأسلم إليها نفسه وقلبه . ففقد بفقد عطف أبيه عليه وشنان أمه كل أمل له في الحياة ، وأصبح يشعر في نفسه بذلة اليتم التي يشعر بها أولئك المساكين المنقطعون الذين لا يجدون بين أيديهم قلوباً راحمة ولا أفئدة عاطفة !

فكان يخاطر بنفسه في المعارك التي يحضرها مخاطرة اليائس المستقل راجياً أن يرميه الموت من هموم نفسه وآلامها . فزج بنفسه ذات يوم في معركة كبرى استبسل فيها استبسالاً عظيماً . واستقل معه جنده يطلبون الموت حيث يطلبه . فلم يبلغ أمنيته التي يتمناها ولكنه انتصر في تلك المعركة انتصاراً باهراً ، وأنقذ من يد الترك شعب<sup>(١)</sup> « تراجان » وكان الملجأ العظيم لهم والمركز

---

(١) الشعب بكسر الشين : الطريق في الجبل ، وما انفرج بين الجبلين .



## الأكبر لحركاتهم وأنماطهم .

ولأنه ليتأثر الجيش المنهزم ويشند في أعقابه<sup>(١)</sup> إذ لمع على  
البعد فارساً تركياً قابضاً بيده على شعر فتاة مسكينة ، يريد  
اقتسارها وإكراهها على الركوب معه وهي تمتنع وتتأبى<sup>(٢)</sup>  
وتحاول الإفلات من يده ، فيضربها بسوطه ضرباً مؤلماً وجيعاً ،  
فأزعجه هذا المنظر وآله فركض جواده حتى أدرك ذلك الفارس  
فصره على هامته بسيفه ضربة قضت عليه ، فركمت الفتاة بين  
يديه ضارعة تسأله أن ينقذها من شقائها ويقودها معه إلى حيث  
يشاء . فرئى لحالها وأحزنه منظرها دون أن يعلم من أمرها شيئاً .  
فأردفها خلفه<sup>(٣)</sup> وركض بها حتى بلغ موضع الحيام ، فتركها  
بين الأسرى وعاد من تلك الموقعة ظافراً منصوراً ، يهنئ الشعب  
ويهتف له في كل مكان يمر به . حتى وصل إلى القلعة الكبرى ،  
فدخل على أبيه وألقى بين يديه الأعلام التي غنمها في المعركة ،  
فأمر برانكومير بقتل الأسرى . وكان ذلك شأنه فيهم كلما قدموا  
إليه ، حتى جاء دور الفتاة . فجثت بين يديه ومدت إليه يدها  
مستغيثة تطلب العفو وتقول له : إنها فتاة نورية<sup>(٤)</sup> مسكينة لا  
شأن لها في الحرب ولا علاقة لها بأهلها . وإن أمها باعته منذ عامين

---

(١) يتأثر : يتبع الأثر . والأعقاب : جميع عقب ، وهو مؤخر القدم والمعنى  
أنه يتعقب الفارين والمنهزمين .

(٢) تتأبى . تتشدد في الإباء .

(٣) أردفها : أركبها وراءه على ردف فرسه .

(٤) النور : جنس من الناس كثير التنقل يعيش عيش البدو ويمتحن المهن الدنيا  
ويعيش كثير منه في وسط أوروبا . ومنه الطائفة التي تسمى في مصر « النمر » .

من جدي تركي أساء عشرتها وعذبها عذاباً أليماً حتى قبض الله لها هذا الفتى الكريم فاستنفذها من يده . وأشارت إلى قسطنطين .

فرجع قسطنطين بجانبها وسأل أباء العفو عنها وقال له :  
 لأنني قد أنقذت حياتها بالأمس فانقذ أنت حياتها اليوم واجعلها حصتي الوحيدة من الغنيمة ، وأعدك أنني لا أطلب غنيمة سواها .  
 فأحفظ ذلك قلب الأميرة بازيليد زوج أبيه <sup>(١)</sup> ، وكانت حاضرة تسمع حديثه فنظرت إليه نظرة الازدراء والاحتقار - وكان هذا شأنها معه كلما التقت به - وأنشأت تنعي عليه اهتمامه بشأن فتاة نورية راقصة طريفة غابات وفلوات وزيبية حانات ومعسكرات ، وقالت له : لقد كان جديراً بك وأنت ذلك الجدي الشريف سليل ذلك القائد العظيم والأمير الجليل أن تلقي بمثلها إلى حارس من حراس بانك أو جندي من جنودك يتلهى بها كما يتلهى الكلب بالعظمة المطروحة تحت أرجله ، بدلاً من أن تصل حياتك الشريفة الظاهرة بحياتها الدنيئة الساقطة .

فثارت ثورة الغضب في نفسه وأضغنه <sup>(٢)</sup> عليها هذا الرياء الكاذب والشرف المتكلف ، وكان يعلم من شئون نفسها وخبايا قلبها ما لا تظن أنه يعرف شيئاً منه . فنظر إليها نظرة شذراء ملتهبة ، وقال لها وهو يعلم أن ما سيقوله سيغضبها ، ويؤلمها ويملأ صدرها غصة وحنقاً : « إن الله لم يخلق الضعفاء والمساكين

(١) أحفظ قلبها : ملأه حفيظة .

(٢) الصنن : الحقد .

ليكونوا تراباً لما تدوسه أقداما وتطوّه نعالنا كلما وجدنا إلى ذلك  
سيلاً ولم يمنحنا القوة والعزة لنتخذ منها أسواط عذاب نمزق  
بها أجسامهم ، ونستترف بها دماءهم ، وكل دنوسهم عندنا أهم  
أدلاء مستضعفون لا يملكون من القوة والعرة مثل ما نملك ولا  
يدودون عن أنفسهم مثل ما نلود .

وأحسب أنهم لو كانوا أقوىاء أو أعزاء مثلنا أو أعر وأقوى  
منا لحفناهم واتقينا جانبهم ونظرنا إليهم بعين غير العين التي ننظر  
بها إليهم اليوم ، لأن القوي الذي يتنمر <sup>(١)</sup> على الضعفاء لا بد  
أن يكون جباناً ذليلاً أمام الأقوياء

إننا الآن في حرب مع عدو قاهر حار نقيم منه حوره <sup>(٢)</sup>  
وظلمه واستضعافه إيانا واستطالته علينا بقوته وكثرته . فجلدير  
بنا ألا نفعل ما ننتمه منه ونأخذه به . عسى أن يرحمنا الله وينظر  
إلينا بعين عدله وإحسانه ، ويتتصف لصعباً من قوته ، وقتلنا  
من كثرته !

إننا لا نحمل هذه السيوف على عواتقنا <sup>(٣)</sup> لنقتل بها النساء  
والأطفال والضعفاء والعزل الذين لا سلاح لهم ولا قوة في أيديهم ،  
بل لنقارع بها الأبطال والأكفاء في ميادين الحروب ومواقف  
النزال .

---

(١) يتنمر : يصطع طاع السر

(٢) نقيم نكره .

(٣) العاتق . الكتف

إني لا أعرف شرفاً غير شرف النفس ، ولا نسباً غير نسب  
الفضيلة وإن هذه البائسة المسكينة التي تحتقرونها وتزدرونها لم  
تصنع ذنبها بيدها ، ولا سعت إليه بقدمها ، بل هكذا قدر لها  
أن تنبت في هذا المنبت القدر الوبيء ، فوبئت وقذرت ، وليس  
في استطاعتها أن تعود إلى العدم مرة أخرى لتخلق نفسها خلقاً  
جديداً في جو غير هذا الجو وتربة غير هذه التربة ، فما هو ذنبها  
وما هي جرميتها ، وأي حيلة لها في هذا المصير الذي ساقها القدر  
إليه ؟

إنما الأثم على الذين يقرءون الذنوب وهم يعلمون مكابها  
من الرذيلة ومكان أنفسهم من اقترافها ، ويحولون رمام حياتهم  
بأيديهم من طريق الخير إلى طريق الشر ، إثارة لها واقتناها بها ،  
أولئك هم الآثمون المذنون الذين يجدر بنا أن نقسو عليهم ونشد  
في مواخذتهم ، أما الصغفاء والمساكين الذين لا حول لهم في شأن  
أنفسهم ولا حيلة ، فهم برحمتنا وعطفنا أحق منهم بعتبتنا ولومنا ،  
فإن وجدنا السيل إلى معاونتهم ومساعدتهم واستنقاذهم من وهدة  
الشقاء التي هوا فيها فذاك ، أو لا . فلندعهم وشأنهم تذهب بهم  
المقادير حيث شاءت من مذاهبها . ولا نردهم بكريائنا واستطاللتنا  
بؤساً على بؤسهم ، وشقاء على شقائهم .

إننا ما أصبنا ما أصبنا به من هذه التكة الشعواء والداهية  
الدهياء التي نزلت بما منذ عشرة أعوام ما تفارقنا ولا تهدأ عنا . إلا من  
ناحية كبريائنا وحيلائنا واعتدادنا بأنفسنا في جميع شؤوننا وأعمالنا .  
واحتقار عنا لقديرا . وقوينا لضعيفنا . وسيدنا لمسودنا ، فلسط

الله علينا ذلك العدو القاهر السذي لا يعتمد في جميع شؤونه ومواقفه إلا على قوته وأيده <sup>(١)</sup> ، لأننا لم نعتد في يوم من أيام حياتنا في جميع صلاتنا وعلاقنا إلا على قوتنا وأيدنا ، والجزاء من جس العمل ، « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

فأصبر وجهه بازليد واربدت شفتاها ، وكأنما خيل إليها أنه يلزمها ويريبها <sup>(٢)</sup> ويشير في حديثه إلى ماضيها القديم وحوادث صباها السالفة ، فصمتت ولم تقل شيئاً ، إلا أنها انتحت ناحية وأخذت تبكي وتتنحب - والدموع هي السلاح الوحيد الذي تعتمد عليه المرأة في جميع شؤونها وعلاقتها - فعظم الأمر على برانكومير ، وأكبر <sup>(٣)</sup> أن يخاطب ولده زوجته المحبوبة هذا الخطاب الجافي الغليظ ، فألقى عليه باللائمة الشديدة وقال له : إنك لم تسيء إلى نفسك في تنزلك إلى حماية هذه النورية الساقطة واهتمامك بشأنها ، بقدر ما أسأت إلى أبيك في مجابهة زوجته ومغايبتها وسوء الرد عليها بهذه اللهجة الشديدة القاسية ولولا هذه الرايات الحمر التي ألقيتها اليوم تحت قدمي بأهلتها البيضاء لما اغتفرت لك هذه الجريمة التي اجزمتها ، فاذهب لشأنك ولا تعد إلى مثلها .

كذلك تم لقسطنطين ما كان يريده من إنقاد تلك الفتاة

(١) الأيد - القوة .

(٢) يلزمها : يشير إلى عيوبها ، ويريبها : يضعها موضع الريبة .

(٣) أكبر الأمر : اعتبره كبيراً .

المسكينة من يد الموت بعدما أنقذها من يد الشقاء ، فذهب بها إلى الجحاح الذي يسكنه من القلعة ، وجلس إليها يحادثها في شأنها وشأن ماضيها ، ويسائلها عن دينها ومذهبها ووطنها وقومها ، فلم يرَ بين يديه إلا فتاة ساذجة جاهلة لا تعرف لها وطناً ولا بيئة ولا تدين بدين من الأديان ولا مذهب من المذاهب ، ولا تفهم من شؤون حياتها إلا أنها فرد مهم من أفراد هذا المجتمع المائع المضطرب ، تمتد بامتداده وتنحسر بانحساره لا تعرف الآمال ، ولا تفكر في المستقبل ، ولا تحفل بالماضي ، ولا يتسع عقلها لأكثر من الساعة التي تعيش فيها ، ولا تتألم إلا كما يتألم الأطفال ، ولا تفرح إلا كما يفرح المجانين ، قد صفت نفسها من كل شائبة من شوائب النفوس البشرية ، فلا تحقد ولا تغضب ولا تكره ولا تحسد ولا تطمع ولا تتطلع ، ولا تشغل ذهنها بتربيب الصور والأفكار واستنتاج النتائج من المقدمات ، فأصبح ينظر إليها نظر الأب الرحيم إلى طفله اللاعب بين يديه ، وأصبحت تجلس تحت قدميه جلسة الكلب المخلص تحت قدمي سيده ، ولا تحدنه حتى يحادثها ولا ترفع نظرها إليه حتى يناديا ، وكان يقول في نفسه كلما نظر إليها وإلى سذاجتها وطهارتها وبلاهة عقلها وغفلته : أهكذا قضى على الإنسان في هذه الحياة ألا تخلص نفسه من شوائب الرذيلة والشر حتى يسلب عقله وإدراكه قبل ذلك ، ألا بمنع مقداراً من الصدق والشرف حتى يحرم في مقابلة مقداراً من الفطنة والذكاء ، فليت شعري هل عجزت الطبيعة عن أن تجمع للمرء بين هاتين المزييتين : مزية العقل الذي يعيش به والحلق الذي يتحلى بحليته ، أو أن الله في ذلك حكمة لا نعلمها ولا ندرك كنهها ؟

وكانما كان يشعر في نفسه باقتداره على أن يجمع لتلك الفتاة المسكينة بين هاتين الفضيلتين ، وأن يصوغ من نفسها ذلك المثال الغريب الذي عجزت يد الطبيعة عن صياغته ، فبدأ بهم بشأنها اهتماماً عظيماً ، ويتبسط معها في الحديث تبسط النظير مع نظيره ذاهباً معها في كل واد من أوديته ، معنياً كل العناية بتثقيفها وتعليمها وإثارة ما أظلم من بصيرتها ، ولكن بأسلوب غير الأسلوب الذي كان يعلمه به معلمه في المدرسة ، فأرشدتها إلى وجود الله لا من طريق الراهين الحدلية والقضايا الكلامية ، بل من طريق الآثار ، والمصنوعات الناطقة بجمالها ولطف تكوينها عن قدرة صانعها وإبداع خالقها ، وأرشدتها إلى الفضيلة من طريق الفضيلة نفسها لا من طريق الترويح في الثواب والتخويف من العقاب ليكون أدها أدب نفس لا أدب درس ، ولتمزج الفضيلة بنفسها امتزاجاً لا تزجعه عواطف اليأس ولا عوامل الرجاء ، فكانت تعجب لحديثه ومراميه عجباً شديداً ، وتجد فيه من اللذة والغبطة ما لا تذكر أنها شعرت بمثله في حياتها في حديث أي متحدث يتحدث إليها ، وتعجب أكثر من كل شيء لتنزل مثل هذا الأمير الجليل والسيد الشريف إلى مجالستها ومناقشتها<sup>(١)</sup> والزول عن حكمها فيما يغضبها ويرضيها ، فقالت له مرة وهي تحاوره : إنك تحدثني يا مولاي كأنك لا تعرف من أنا ، قال : إني أعرفك كما تعرفين نفسك ، وأعرف

---

(١) الثعنة (مكر الغاء) الركبة . وثانته : جالسة ركبة لركبة : أي مواجهة .

أنك أنختي في الإنسانية وهي الأم الرؤوم<sup>(١)</sup> التي لا يستطيع أحد من بنينا أن يمت إليها<sup>(٢)</sup> بأكثر مما يمت به إخوته ، وما للأخت ملجأ تلجأ إليه في شدتها غير عطف أخيها وحنانه عليها . قالت : ولكنك تعلم أني فتاة مدنية ساقطة . قال : كل الناس مدنيون آثمون ، وإنما تختلف صور الذنوب وأشكالها وأساليب اقترافها . قالت : لم أر في حياتي منذ نشأت حتى اليوم عسيفاً قط ابتسم في وجهي ! قال : ذلك لأن الناس مراؤون محادعون يرعمون لأنفسهم من الفضائل والمزايا ما تنكره نفوسهم عليهم ، فهم يحتفرون المذنب ويزدرونه ، لا لأنهم أطهار أبرياء كما يرعمون ، بل ليوهمو الناس أنهم غير مدبيين ، ولو أنهم تكاشموا وتصارحو وصدق كل منهم صاحبه الحديث عن نفسه لتاركوا<sup>(٣)</sup> وتهادونا ولما أخذ أحد منهم أحداً بذبذ ولا جريرة !

وكذلك أصبحت « ميلترا » الغراء الوحيد لقسطنطين عن همومه وآلامه فقد وجد بين جنيتها تلك النفس الطاهرة البرية التي طالما نشدها قبل اليوم فأضلها<sup>(٤)</sup> وتطلبها فأعياء طلالها ، ووجد في صدرها ذلك القلب المحب المخلص الذي نكاه وندبه ندباً شديداً يوم ماتت أمه ، ويوم تولى عنه حنان أبيه ، وكان يتحدث معها في كل شيء من شئون الحياة دقيقتها وجليلها ،

(١) الرؤوم . المطوف .

(٢) يمت . يتوسل وينتسب .

(٣) تترك كل منهم صاحبه .

(٤) لم يند إليها .



ويفضي إليها بكل حبيثة من خايا نفسه ، إلا ذلك المم العظيم  
 اندي كان يحالجه في أطواء نفسه وأعناقها ، ويكابد مه ما يقلق  
 مضجعه ويصل ليله بنهاره ، وهو استحالة حال أبيه (١)  
 وانتقاض قلبه عليه ، وانقياده ذلك الانقياد الأعمى إلى تلك الفتاة  
 اليونانية الدخيلة التي لا يعنيتها من شأنه سوى أن تتخذ من عاتقه  
 سلماً تصعد عليه إلى سماء المجد . ثم لا تبالي بعد ذلك أن تدفعه  
 بقدمها بعد بلوع عايتها فيسقط في الهوة التي قدر له أن يهوي فيها ،  
 إلا أن ميلنزا الذكية فطرتها ، المتفانية في حبها وإخلاصها ،  
 لم يكن يفوتها أن ترى عين فطتها وذكاها في تلك الزاوية المظلمة  
 من زوايا قلبه ، ذلك المم الحفي المكن (٢) ، وكان يساعدها  
 على فهمه واستكناهه (٣) تلك الأحاديث التي كانت تسمعها تدور  
 من حين إلى حين بين القائد وزوجته عندما كانا يمران بها أو يقفان  
 على مقربة منها وهي جالسة تحت بعض الجدران أو في ظلال  
 بعض الأشجار لا يحفلان بها ولا يلتقيان لها بالاً ، فقد سمعته مرة  
 يقول لها : إنني أحبك يا باريليد حب المرء نفسه التي بين جنبيه ،  
 ولقد عشت حياتي كلها قانعاً من العيش بتلك اللذة الوحشية  
 الدموية ، القتل والأسر وسفك الدماء وتقطيع الأوصال حتى  
 رأيتك تتطلعين إلى تاج الملك وتشتهين أن تضعيه فوق رأسك  
 فأحبته من أجلك ، وأصبحت لا أقترح على الدهر أمراً سوى

---

(١) استعمال . تعير .

(٢) المستور .

(٣) معرفة كنهه وحقيقته .

أن أرى تلك الحبيبة اللامعة المضيئة يتلألأ فوقها ذلك التاج المرصع  
 البديع فلا تيأسي منه ولا تقنطي ، واعلمي أنني سأتيك به وإن  
 كان كوكباً نائياً في آفاق السماء ، أو درة راسية في أعماق البحار ،  
 وسمعتها مرة تقول له : ما أجمل وجهك يا برانكويمر ، وما  
 أبدع ضيائه ولألاءه ، وما أنصع هذه الشعور البيضاء التي  
 تدور به دورة الهالة بالقمر ! وما أجمل تاج الملك يوم وضع  
 على رأسك فسجد الأضواء الثلاثة جميعها ويمح بعضها في بعض  
 فتراءى في أجمل شكل وأبدع منظر !<sup>٥</sup> إنك ستكون ملكاً يا  
 مولاي ! وستكون أعظم ملوك العالم شأناً وأرفعهم مقاماً ،  
 وستجتمع فوق عرشك الرفيع الأتجاد الثلاثة : مجد النسب ،  
 ومجد الحروب ، ومجد الملك ، وقد ألقى الكاهن في نفسي كلمته  
 التي تنبأ لي بها ، وما هو بالكاذب ولا المجنون ، فكن على ثقة  
 من صدقه وحكمته ، واعلم أنه ليس بينك وبين التاج إلا خطوة  
 واحدة ، فأخصها بهمة وعزيمة تبلغ الغاية التي تريد . وسمعتها  
 مرة تقول له : إنني لا أخاف على أملنا أحداً من الناس سوى  
 ولدك قسطنطين ، فقد علمت أسس من بعض أصدقائه أنه ينكر  
 عليك كل الإنكار هذا المسعى الذي تسعاه اليوم ، كما سمعت  
 أنه يشبط الناس عنك ويزحزحهم من حولك ويلقي في قلوبهم  
 اليأس من نجاحك ، ولقد حدثني عنه بعض الناس أن ذاكراً  
 ذكر له مرة ولاية العهد مهنتاً إياه بها ، فغضب واحتد وتغيظ  
 عليه تغيظاً شديداً وقال له : إنني جندي ولدت في ساحة القتال  
 وسأموت فيها ، وإن كلمة كهذه الكلمة المؤثرة يفولها أمر مطاع  
 في الجيش وللشعب كولدك ، لا بد أن تترك أثراً سيئاً في نفوس

الناس جميعاً وتفت في عضد أنصارك وأعوانك ، وربما كانت سبباً في القضاء على آمالك وأمانك . ولا أعلم لخطته هذه سبباً سوى ذلك البغض الشديد الذي لا يزال يضره لي في أعماق قلبه منذ دخلت بيتكم حتى اليوم ، وما أدنت إليه ذنباً ولا أسلفت عنده جريرة ، فهو يؤثر أن يحرم نفسه وبيته ذلك الشرف العظيم الخالد على أن يراني جالسة على العرش ناعنك أستظل بظل نعمتك وأشاركك في التمتع بمجدك وسلطانك . فقاطعها الأمير وقال لها : لا تصدقي يا بازيليد شيئاً مما يقولون . فقسطنطين أبرني وأعظم حباً وإخلاصاً من أن يعترض سبيل رعة يعلم أنني أرغبها وأصبر إليها ، ولا أعلم أنه يبغضك أو يضر لك في نفسه شيئاً من الشر الذي تذكرين ، بل هو يحترمك ويحلك لإجلاله لإياي ، ويجب لك من الخير ما يجب لي ولنفسه ولا يؤثر على مرضاتنا شيئاً ..

وكذلك ظلت ميلترا تسمع أمثال هذه الأحاديث فتعلم منها ما يدور بنفسي هذين الشخصين الطامعين . وتعلم أن هذا الذي يدور بنفسيهما إنما هو علة ذلك الهم الذي يعالجه قسطنطين في أعماق قلبه ويكأبده ، ولكن لم يحطر ببالها مرة أن تنقل إليه شيئاً مما سمعته ، إعظاماً له وإجلالاً ، وضناً بنفسها وبأدبها أن تفانحه في أمر لم يشأ هو أن يفانحها فيه .

## التاج

جاء اليوم المعين لاجتماع الجمعية الوطنية للنظر في انتخاب الملك الحديبد فنظرت في المسألة نظراً خالصاً مجرداً عن الميل والهوى فرأت أن العدو لا يزال على الأبواب ، وأنه لا يزال قوي الشكيمة صعب المراس ، وأن الوطن يحتاج إلى الأمير برانكوميير قائداً أكثر مما يحتاج إليه ملكاً ! وأن الأسقف « أتين أعظم رجال المملكة عقلاً » وأسماهم إدراكاً وأقواهم سلطاناً على نفوس الجيش والشعب ؛ فقررت تقليده ملك اللقان ، وأعلنت قرارها في جميع أنحاء المملكة فقاتله الشعب بالرضا والتسليم ، ولم يختلف عليه إلا العدد القليل من أشياع القائد وأنصاره .

ثم أقيمت حفلة التتويج بعد أيام ، فحضرها جميع وجوه المملكة وعيونها ، ورجال السياسة والجيش ، ما عدا القائسد برانكوميير ، فلم يأخذه الملك هذه الهنة ، بل أعتهبه <sup>(١)</sup> وأعطاه من نفسه الرضا ، ولم يقنع في أمره بذلك حتى أعلن عزمه على

---

(١) الهنة : الذنب الصغير . وأعتهبه : لم يغضب لنعلته واتصم الأمر بينها على العتاب يتبعه الرضا .

السفر إلى الحدود لربارته في قلعة ، وما لست أن سافر في جمع من حاشيته وجنده ، وكانت رسله قد تقدمته لإنباء القائد بمقدمه ، فامتعض لذلك وتمرم<sup>(١)</sup> ، وكانت تحدته نفسه أن يسافر إلى بعض الجهات حتى لا يستقبله عند قدومه ، لولا أن أشارت عليه بازيليد بنير هذا الرأي ، فأدعى لها راغماً ، ونزل لابتظاره أمام باب القلعة حتى حضر ، فحيّاه الملك حين رآه تحية الإجلال والإعظام وعانقه عناقاً طويلاً ، وقال له : أما الملك الجالس على عرش البلقان وصاحب الأمر والنهي فيه فهو أنت يا برانكومير : أما أنا فلاني خادملك الأمين المخلص القائم بتنفيذ أوامرك ونجيش الحيوش لك وإمدادك مما تحتاج إليه من العدة والمؤنة ، واعلم أن الأمة لم تضن عليك بالعرش والتاج ولا رأت أن أحداً أجدر بهما منك ، ولكنها ضنت بك أنت - وأنت حصنها المتين ودرعها الواقية - وبطلها الذي لا يغني غناؤه في موقعة أحد - أن يشغل شاغل الملك عن شأنك الذي أنت فيه والذي نصبت له نفسك طوال حياتك ، فأثرت بقاءك في هذه القلعة تحميها وتحمي الملكة بحمايتها ، فإن لم تكن الملك الجالس على عرش « فيدين » فأنت الملك المتبوي عرش الأفتدة والقلوب ، واعلم أنني ما قدمت إليك مقدمي هذا لأعتذر عندك من ذنب أذنبته إليك ، أو لأتوجه لك من كارثة نزلت بك ؛ لأني أعلم أنك أجل وأرفع من أن تعتبر عبء الملك وهمه نعمة تأسف على فقدانها ، بل جئت لأباركك وأمسحك وأدعو لك الله أن يمدك بروح من عنده حتى يتم لنا

---

(١) ترمم : اهتز هزة النفس .

على يدك النصر الذي نرجوه لأنفسنا فيأمن البلقان أبد الدهر أن  
تتحقق على ربوعه بعد اليوم راية غير راية المسيح ، أو يرن في  
أجوائه صوت غير صوت الله .

ثم تقدم نحوه ووضع يده على رأسه يباركه ويصلي له ،  
وبرانكومير يتميز عيظاً وحنقاً ، ولكنه يتجلد ويستمسك ، حتى  
فرغ الأسقف من شأنه فلم ير بداً من أن يستقبل حفاوته بمثلها .  
فمد إليه يده وهناه بالملك واعتذر إليه من تقصيره في حضور  
حفلة التتويج ، فقبل عذره وقضى بقية يومه عنده هائناً معتبطاً  
لا يرى إلا أنه قد أراضاه ومحا أثر ذلك العتب من نفسه .

ثم عاد بموكبه راضياً مسروراً ، فشيعه القائد إلى ضاحية  
المدينة ولبت واقفاً مكانه ساعة ينتظر إلى ذلك الموكب الفخم العظيم ،  
ويسمع موسيقاه الشجية الجميلة ، حتى غاب عن بصره ، فانقلب  
إلى قصره نائماً مهتاجاً يصيح ويحار ويهذي هذيان المحموم ،  
حتى بلغ غرفته الخاصة فوقف بجانب نافذة عالية مشرفة على  
الجماهير الغادية والرائحة في طرفها ومذاهبها ، وأنشأ يحدث  
نفسه ويقول :

تباً لك أيها الشعب الخائن الغادر ، لقد جازيتني شر الجزاء  
على عملي ، وكفرت بنعمتي التي أسديتها إليك ، ويدي التي اتخذتها  
عندك ، وأيام كنت أسهر لئنام ، وأشقى لتسعد ، وأقضي ليالي  
الطوال سجيناً في قلعتي لا أريحها ولا أنتقل منها لأدبر لك أمر  
الحماية التي تحميك وتصون أرضك وديارك ، وأنت لاه ولاعب ،

هانيء مغتبط ، يمرح عامتك في منازعهم ومسارحهم ليلهم ونهارهم ،  
ويقيم خاصتك حفلات الرقص والغناء في قصورهم وأنديتهم .  
فكان جزائي عندك أن ضمنت عليّ بالعرش الذي أنا عماده وملاكه  
وحامل قوائمه وعمده ، وأكثر به كاهناً مأفوناً<sup>(١)</sup> لا شأن له في  
حياته سوى أن يمسح رؤوس الأطفال ويهمهم حول أسرة الموتى ،  
فبئس ما جررت على نفسك من الويل في فعلتك التي فعلت ،  
وبئست الساعة التي رأيت فيها هذا الرأي القاتل الخطئ<sup>(٢)</sup> .  
لقد فلتت<sup>(٣)</sup> بيدك سيفك الذي كان يحميك ويصونك وأطفأت  
جذوة الحماسة في صدر قائدك الذي كان يلدود عنك وعن عرضك ،  
ويحمي أرضك وديارك ؛ فابتغ لك بعد اليوم قائداً يتولى حمايتك  
وصيانتك ، أو فاطلب إلى أسقفك التقى الصالح الذي توجهه  
بيدك واختبرته بنفسك لنفسك أن يستزل لك بدعواته النصر من  
آفاق السماء !

وإنه ليردد في موقفه أمثال هذه الكلمات وينث سبوم الحقد  
والشر على العالم بأجمعه ، اذ دخلت عليه الأميرة باسمه متطلقة  
تحتال في حللها وحلاها ، فأخذت بيده وقالت له : ارفق بنفسك  
يا برانكومير ، واعلم ان نوء الكاهن لا تكذب ولا تخيب ،  
أبشرك أنك ستكون بعد شهر واحد ملكاً على البلقان ولا  
تسألني كيف يكون ذلك ! فدهش لأمرها وحاول أن يسألها

(١) المأفون : الضعيف الرأي والأحق .

(٢) القاتل : الذي يخطئ في فرائضه ، والرأي الخطئ : الفاسد المضطرب .

(٣) فلتت السيف : ثلثت حده .

عن معنى كلمتها ومأناها فلم تمكنه من ذلك ، لأنها نهافت عليه<sup>(١)</sup>  
واعترفته ووصعت على فمه قبلة شهية أطفأت بها جذوة حذته  
وغضبه ثم أفلتت من يده وعادت أدراجها .

---

(١) التهافت : السقوط .



## المرأة

اصطحبت بازيليد في سريرها وحلست خادماتها صوفيا تحت قدميها تروح لها بمروحتها وتحدثها حديث نك الآمال الحسان التي لا تزال تراءى لها في يقظتها وتحلم بها في مامها ، وإيهما لكللك إذ قرع الباب قرعاً خفيفاً . فعرفت صوفيا من القارع وفتحت له ، فإذا « بانكو » الحناسوس التركي متكرراً في زي الموسيقىار المسكين ، فدخل وحياً الأميرة تحية الإجلال والإعظام ، ثم أخذ مقعده الذي كان يقنعه في الغرفة كل ليلة ، وأنشأ يضرب على قيثارته قطعة رومانية جميلة من تلك القطع التي كان أعدها منذ عهد طويل ليخلب بها لب تلك المرأة ويستهوياً حتى أتمها ، فطربت لها طرباً شديداً . ثم دعت خادماتها فأرسلنها في بعض الشئون . فلما حلا بها المكان ألقى الموسيقى قيثارته جانباً وخلع عنه رداء التنكر . ثم مشى الى سريرها فجلس بجانبها وقال لها . ماذا تم في المسألة يا بازيليد ؟ فقد طال مقامي في هذا البلد وأختمى أن يرتاب بي أحد . وليس في استطاعتي أن أنقى ها أكثر من ثلاثة أيام ثم أنصرف لشأني .

فاعتذلت في جلستها وقالت له : لقد فاتحت الأمير ليلة أمس

في المسألة وعرضت عليه مقترحك الذي اقترحت ، فأصغى إلى حديثي في مبدأ الأمر ثم لم يلبث أن اكفهر وجهه واكتأب وأبى أن يقبل مني كلمة واحدة في هذا الشأن وظل يقاطعني ويعارضني معارضة شديدة ؛ فلم أشأ أن ألح عليه مخافة أن يرتاد بي وبمقصدي ، وسأستأنف معه الحديث الليلة بعد رجوعه من المعسكر ، وأرجو أن ينهي بإدعائه وتسليمه ، ولا يفُتِك يا سيدي أن من أصعب الأمور على رجل شريف عظيم مثل برانكومير أن يتحول في ساعة واحدة عن أخلاقه وطبيعته ، وأن ينقلب فجأة من رجل وطني مخلص يبذل دمه وحياته في سبيل الدفاع عن وطنه والذود عنه - إلى خائن ساهل يبيع ذلك الوطن العزيز عليه من أعدائه بعرض تافه من أغراض الحياة ، فلا بد من مهادنته ومواناته<sup>(١)</sup> وأخذه بالرؤية والتؤدة .

قال : ليس في الأمر حياة ولا دناءة ، ولا بيع وطن ولا أمة فَمَا لا نريد أن ندخل بلادكم مستعدين أو مسترقين ، بل أصدقاء مخلصين ، وما خطر ببالنا قط حينما فكرنا في افتتاح بلادكم والزول بها أن نصادركم في حريثكم الدبية والاجتماعية . أو نسل أموالكم وننتهك أعراضكم . أو نعلق أبواب كنائسكم ومبانيكم ، أو نخرس أصوات نواقيسكم وأجراسكم . بل لنكون أعوانكم على ترقية شؤونكم الاجتماعية والاقتصادية ، وآكسبر بكم في طريق المدنية الأدبية والسياسية . حتى تبلغوا الذروة

---

(١) الصبر عليه

العليا منهما ، ولنحميكم فوق ذلك من أعدائكم المجريين الذين يطمعون في امتلاك بلادكم واغتيالها ، وندفع عنكم شرورهم ومطامعهم ، فنحن أصدقاؤكم المخلصون الأوفياء من حيث نظنون أننا أعداؤكم وخصومكم .

فإبتسمت بازليد ابتسامة الهزء والسخرية ، ونظرت إليه نظرة عتب وتأنيب وقالت له : إن برانكومير يا صديقي ليس موجوداً معنا لنخدعه بأمثال هذه الأساليب الكاذبة ، أما أنا فإني لا أنخدع بها ولا أغتر ، لأنني أعلم كما تعلم أنت وكما يعلم الساسة الكاذبون جميعاً أن القاتحين من عهد آدم إلى اليوم وإلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، لا يفتحون البلاد للبلاد بل لأنفسهم ولا يمتلكونها لرفع شأنها وإصلاح حالها والأخذ بيدها في طريق الرقي والكمال كما تقول ، بل لامتصاص دمها وأكل لحمها وعرق عظمها<sup>(١)</sup> وقتل جميع موارد الحياة فيها ، والأمة إن لم تتول إصلاح شأنها بنفسها لا تصلحها أمة أخرى ، مهما حسنت نيتها وفبل مقصدها ؛ والصالح إن لم ينبت في تربة الأمة نفسها ويزهر في جوها ويألف مع مزاج أفرادها وطبيعتهم لا ينفعها ولا يجدي عليها ، ويكون مثله مثل الزهرة التي تنقل من مغرسها إلى مغرس آخر ، فهي تزهر فيه أياماً قلائل ثم لا تلبث أن تذبل وتذوى .

فإن وجد بين أولئك الطامعين من يذهب في سياسته

---

(١) عرق العظم : أكل ما عليه من اللحم .

الاستعمارية مذهب الإصلاح والتشييد . فكما يسم صاحب الشاة ليدبجها ويأكلها ، وكما يتعهد صاحب المزرعة مزرعته بالري والتسميد ليستكثر غلتها وثمراتها .

أما الحرية الدينية التي يريدون أن تمنوا لها علينا فما أهونها عليكم ما دامت لا تعطل لكم غرضاً ، ولا تقف لكم في سبيل مطعم ، وقديماً كان الفاتحون يمدعون الشعوب الجاهلة بإرضائها في شؤون دينها ليسلبوا شؤون دنياها ويوجهون نظرها إلى الشؤون الروحية الخالصة ، ليقطعوا عليها طريق النظر في الشؤون المادية الحسبية ، فكان مثلهم في ذلك مثل اللص الذي يدس لمن يريد سرقة مادة مخدرة في طعامه لا تكلفه إلا غمناً يسيراً ليستولي على الجرم الكثير من دنائره ودراهمه ، على أن القوة الدينية في الأمة أثر من آثار القوة السياسية فإذا ضعف أمر الأمة في سياستها ضعف أمرها مع الأيام في دينها ، ولا بقاء لدين من الأديان يعيش تحت سلطان دين آخر ويستظل برايته ، إلا كما يبقى الثلج تحت أشعة الشمس وحرارتها ، ومن ظن غير ذلك فعلى عقله العفاء !

أما حمايتكم إيانا من أعدائنا فليس لنا على وجه الأرض عدو سواكم فاحمونا من أنفسكم قبل أن تحمونا من غيركم ، وهب أن المجريين أعداؤنا كما تقولون ، فهل يطمعون في شيء أكثر مما يطمعون فيه أنتم ؟ وهل يحاولون منا غير هذا الفتح الذي تحاولونه اليوم ؟ وهل من الرأي أن يهب الإنسان متاعه رجلاً عفاة أن يغلبه عليه رجل آخر ؟ أو أن يذبح نفسه بيده فراراً من ذابح يريد أن يذبحه ؟

إنكم ما جئتم هنا لتحملونا من أعدائنا . بل لتحتموا بنا من أعدائكم لأنكم إنما أردتم بامتلاك هذه البلاد واستعمارها أن تتخذوا من حصونها وقلاعها وجبالها وأسوارها ودماء أبنائها وأرواحهم وقاية لكم تتقون بها زحف المحررين عليكم وعدوانهم على أرضكم .

هذه هي الحقيقة التي لا ريب فيها ، فإن كنت تريد بما قلته أن تعلمني ما ألقته لذلك الرجل الذي اتفقنا على خداعه وخنله ، فلاني أحفظ كثيراً من أمثال هذه الرقى والتعاويد ، فلا حاجة بي إلى سماعها منك ، فلنعمل في المسألة معاً متكاشفين متصارعين . ولتعلم أن الذي أسعى لإعطائك إياه وتسليمك زمانه إنما هو الوطن بأجمعه : أرضه وسماؤه ، ويره وبحره وخيراته وثمراته ، وحرية أهله وسعادتهم ، وأن الثمن الذي أتقاضاه في سبيل ذلك ثمن بخس ضئيل لا يزيد عن كرسي من الخشب مموه بالذهب يسميه الجاهل عرشاً وهو في البلد المغلوب على أمره المسلوب حرته واستقلاله سجن ضيق ، لولا خدع الحياة وأكاذيبها لما استطاع الجالس عليه أن يهدأ ساعة واحدة ، فأنا أبيعك هذا الوطن الثمين وأخذ منك ذلك الكرسي الحقيق ، وأنا عالمة قيمة ما أعطي وقيمة ما آخذ ، فلا تحسب أنك تخدعني أو تدهمني<sup>(١)</sup> في هذه الصفقة ، وأقسم لك بشرفي وشرف « يزنطة » لو كان هذا الوطن وطني وكانت تربته مدفن آبائي وأجدادي لما بعثك ذرة واحدة من ترابه بجميع عروش الأرض وتيجانها .

---

(١) تنسى .

فاصفر الجاسوس واربد وجهه وقال : إننا ما اجتماعنا هنا  
لتفسير معنى الفتح والاستعمار ، بل لأعرض على روجك هذا  
العهد السلطاني بتقليده ملك البلقان وللباسه تاجه إن هو تمكن من  
إخلاء الحوم<sup>(١)</sup> من حراسها وسهل لجيشنا اجتيازها ، فإن قبل  
فذاك أو لا عدت بعد ثلاثة أيام إلى مركز الجيش ورفعت الأمر  
إلى سلطاني وقائدي وعادت الحرب إلى شأنها الأول أو أشد ،  
ولا يعلم إلا الله متى تنتهي وماذا تكون عاقبتها ؟

فتناولت منه العهد وقالت له : سننتقي بعد ليلتين أو ثلاث  
وسأخبرك بما تم عليه الاتفاق .

فقام إلى مكانه الأول وأخذ يضرب على قيثارته بعض  
الأناشيد الدينية ، وما هي إلا لحظة حتى عادت الوصيقة ، وكان  
الليل قد انتصف فاستأذن للانصراف وانصرف .

---

(١) الحوم : الحفود .

## الاول

الحب شقاء كله ، وأشقى المحبين جميعاً أولئك الذين يحبون  
بلا أمل ولا رجاء ! .

لأنهم يذرفون دموعهم وهم عالمون أنهم يسكبونها في أرض  
قاحلة جدياء لا تنبت لهم راحة ولا سعادة . ويسهرون لياليهم  
وهم يعتقدون أن ظلمتها لا تنحسر عن فجر منير أو صبح سميد .  
ويطرقون برءوسهم في خلواتهم لا ليفكروا متى تنتهي أيام شقاؤهم  
أو تبتدىء أيام سعادتهم فحياتهم كلها شقاء لا فرق بين أمسها  
وغدها وحاضرها ومستقبلها ، بل ليفكروا متى يرحلون عن  
هذه الدار ليستريحوا من آلامها وهمومها فإن كان لا بد لنا من  
أن نذرف قطرة من دموعنا على شقي في هذه الأرض ، فلنذرفها  
على والد نكل ولده في ريعان شبابه أحب ما كان إليه ، وألصق  
ما كان بقلبه ، من حيث لا أمل له في رجعته ولا رجاء في لقائه ،  
أو عاشق علم في ساعة ما كان يتوقعها أن حبيبته قد تزوجت  
من غيره وأنها ستسافر اليوم أو غداً إلى وطن ناه لا رجعة لها منه  
أبد الدهر فوقف أمامها يودعها وداعاً لا يقول لها فيه : إلى الغد  
أو إلى الملتقى ، ولا يأخذ عليها فيه عهداً أو ميثاقاً ، بل يصمت

صمتاً تذوب في كبده القريضة ذوباً ، حتى إذا غابت عن بصره وانقطع آخر آثارها رجع أدراجه وهو يعلم أن لا نصيب له في العيش بعد اليوم ، وأن هذا آخر عهده بالحياة - أو فتاة بائسة مسكينة كتب لها شقاؤها أن يعلق قلبها بعظيم من عظماء الحياة المدللين بأنفسهم ومكانتهم ، فلا تستطيع الصعود إليه في سمائه ، وليس من شأن مثله أن يهبط إليها في أرضها . فهي تبكيه ولا يشعر ببكائها وتهتف باسمه ليلاً ونهاراً ولا يسمع نداءها ، ولا يزال هذا شأنها حتى يوافيها أجلها فيريحها .

كذلك كان شأن ميلترا . فلما أحبت سيدها حب العابد إله المعبود ، وافتنت به افتتناً كانت تحسبه في مبدل أمرها عاطفة ولاء وإخلاص . فإذا هو لوعة الحب وحرقة الغرام ، ولكن أنى لها وهي الفتاة النورية الساقطة المسكينة أن يمتد بها مطعمها إلى ذلك الكوكب النائي في سمائه أو أن تحت إليه بسبب من تلك الأسباب التي يمت بها الناس بعضهم إلى بعض ، فكانت وهي أقرب الناس إليه أبعد الناس عنه وأتاهم من مكانه ، لا تستطيع أن تتجاوز في موقفها معه منزلة الخادم من المخدم والسيد من المسود والصنيعة من صاحب النعمة .

وكان يقلقها أشد القلق ويكاد يذيبها حياءً وخجلاً خرفها أن يطلع منها على سريرة نفسها ، أو أن يعثر يوماً من الأيام بتلك اللوعة المتأججة في صدرها ، فيتهمها في عقلها ويسخر بينه وبين نفسه بتصوراتها وآمالها<sup>(١)</sup> ، فكانت تفر من نظراته كلما وقعت

---

(١) الفصح أن يقال : سخر منه ، واستهزأ به .



عليها حتى لا يرى في عينيها أثر الدمع ولا حمرة السهر . وتهرب من الخلوة به جهدها حتى لا يرتاب في اصفرار وجهها واضطراب أوصالها وذمول عقلها ولجلجة لسانها أي أنها كانت محرومة كل شيء حتى اللذة الضئيلة التي يتمتع بها أقل المحبين خطأ وأخيبهم في الحب سهماً وهي الإفضاء بمكنون صدرها إلى ذلك الذي تحبه وتعبده ، وكان كل ما يعرف قسطنطين من شأنها أنها فتاة مخلصنة وفية تحبه حب العبد الشكور لسيدته المعمر . وكان يجد من بلائها وسذاجتها وطهارة قلبها ونقاؤه وصدق لسانها وإخلاص قلبها ملهامة يتلهم بها عن همومه وأحزانه . ومتكأً يتكئ عليه في ساعات إعيائه ونصبه ، لا يزيد على ذلك شيئاً ، فكانت إذا جن الليل وأخذت الجنب مضاجعها جلست في فراشها تساهر الكوكب وتطالع وتزفر زفرات حرى موجعة ، وهي لا تعلم ماذا تشكو ، ولیم تبكي ! لأنها لا تعرف لها غرضاً ولا عاية .

ولو استطاعت أن تفهم من شئون نفسها ما يفهم الناس من شئون نفوسهم لعرفت أنها إنما تبكي على أن ليس لها في الحياة . كما للناس ، أمل ولا رجاء .

هذا هو الحب الطاهر البريء الذي لا تشوبه الأغراض والغايات ، ولا تحيط به الريب والشكوك . والذي طالما نشده الناس في كل مكان فأضلوه ، وذابت قلوبهم حسرة عليه فلم يجدوه ، وأي سعادة في الدنيا أعظم من سعادة نفس نجد بين يديها نفساً طاهرة مخلصنة تحبها وتعبدها ، وتمتزج بها امتزاج الماء بالتمر . والأربع بالزهر ؟ ولقد ظفر قسطنطين من تلك

الفتاة بهذه النفس المخلصة المتبعدة التي تحزن لحزنه وتفرح لفرحه ،  
وتغضب لغضبه . وترضى لرضاه . ولا تعرف لها وجوداً  
منفصلاً عن وجوده . ولا حياة مستقلة عن حياته . فكانت منه  
منزلة المرأة من الوجه : تقطب إذا قطب . وتبتسم إذا ابتسم .  
وتظهر فرحاً وسروراً بانتصاراته . وتذهب كمدأ وحزناً لألامه  
وأحزانه . وتحب أباه حبه إياه . وتصر من زوج أبيه نفوره منها  
وهو إن لم يكن يفاعمها في شأن من شئونه الخاصة ، ولا يفضي  
إليها بسر من أسرار بيته وعلائق بعض أفراده ببعض ، إلا أنها  
كانت تشعر أن تلك المرأة اليونانية الدخيلة خطر عظيم على الوالد  
والولد . بل على الأمة بأسرها . وكان شعورها هذا يقودها إلى  
مراقبتها وملاحقتها في كل مكان وترصد حركاتها وسكناتها عليها  
تهجم منها على ذلك السر المائل تنوهمه توهماً ، ولا تعرفه ،  
فتكشفه وتمزق عنه الستار . حتى أتاها القدر يوماً من الأيام  
فعبثت به ...

## السمر

رجع قسطنطين من بعض عزوانه ، فدخل على ميلترا فرآها مطرقة واجمة ، فلم يلق لها بالاً وخلع رداءه ، ثم جلس على كرسيه جلسة الراحة والسكون ، وإنه لكذلك إذ طرق مسمعه صوت تلك القيثارة البديعة التي كان يسمعه من حين إلى حين تصدح في قصر أبيه . فطرب لها طرباً شديداً ، واقتر ثغره بعد عبوسه ، ثم نظر إلى ميلترا ، وهي حالسة تحت قدميه . فرآها مصفرة مغبرة الوجه ذاهلة ، كأنه نكبة من النكبات العظام قد نزلت بها . فعجب لأمرها ، وقال لها : ألا تطربين معي يا ميلترا لهذه النغمات الشجية البديعة ؟! فرفعت رأسها إليه ، وكأن دمعة لامعة تترقق في عينيها ، وقالت له : لا يا مولاي ! فدهش لقولها وقال : ولِمَ ؟ قالت : لأنني لا أحبها ! قال : ولم لا تحبينها ؟ قالت : لأنني لا أحب صاحبها ، قال : وهل تعرفينه ؟ أليس هو ذلك الرجل البائس المسكين الذي يختلف إلى الأميرة من حين إلى حين ليسمعه أناشيد قومها وأغانيهم فتعود عليه ببعض نواها ؟ قالت : إنه ليس بسائل يا سيدي ولا مسكين ، بل هو الضابط العظيم إبراهيم بك أحد قواد الجيش التركي ؛

فانقص قسطنطين مدعوراً واسوى في مكانه جالساً وقال : ماذا تقولين ؟ قالت إنني كنت مخلوعة به قبل اليوم ، حتى رأيت ليلة أمس واقفاً تحت شجرة وارفة من أشجار الحديقة يصلي صلاة المسلمين مطرقاً خاشعاً مستقبلاً قبلتهم . فارست في أمره ، ثم دنوت منه وأنعمت النظر في وجهه من حيث لا يشعر بمكاني ، فعرفته وذكرت أنه ذلك الطل العظيم الذي كنت أراه في معسكر الجيش التركي لا يرال مرافقاً للقائد الكبير يسير في ركابه حيث سار ويتنقل معه في غدواته وروحاته ، وإن غابت عني معرفته فلن تغيب عني معرفة تلك الشجرة الملالية الواضحة في جبينه ، وذلك الخال الأسود المرتسم تحت عينه اليسرى ، بل أعرفه من تلك النغمات الشجية التي يغنيها الآن ...

وهنا توقفت عن الكلام . واضطربت . وكان كلمة حائرة تتخلج بين شفثيها . فعجب قسطنطين لأمرها وسألها ما بالها ؟ فأطرقت هنيهة . ثم رفعت رأسها فإذا دمعة تنحدر على حدها ، واستمرت في حديثها تقول : نعم . إنني أعرفه من تلك النغمات التي كان يدعوني إلى الرقص عليها في خيمته في المعسكر . وهو حالس بين صحبه وخلانه من قواد الجيش ورؤسائه . بغنيهم ويطرهم ، فأرقص أمامهم رقص الطائر المذبوح وفرايدي يتمزق لوعة وأسى ، لا أمن ولا أفر ولا أستعفي ولا أعذر ، تخافة أن يرى سيدي الخندي ذلك مني فيعاقبني ، فقد كان يحاسبني على الضعف والعجز والحياء والحجل والتلوم<sup>(١)</sup> والاحتشام .

---

(١) التلوم : البطء .

محاسبة القاضي المحرمين على الذنوب والآثام . فاعذرني يا سيدي  
إد بكيت لحظة بين يديك . فإسبي وإد كت ولدت في مهد  
الشفاء . وشأت في ححر البؤس والآلام . فقد كانت تلك الأيام  
التي قضيتها في ذلك المعسكر أو في ثورة السقوط والعار ، أشقى  
أيامي وأعظمها شدة وبؤساً ، لا أذكرها إلا بكيت لذكرها  
وأسلت ردائي على وحيي حياء منها وخجلاً

على أنني أحمد الله إليك ، فقد بسطت إليّ يد رحمتك  
وإحسانك . واستغفرتني من محال ذلك الشقاء أبأس ما كت  
من الخلاص منه . أحسن الله إليك وهون عليك همومك وآلامك .

وكانت تتكلم وقسططين لاه عنها بقصة ذلك الجاسوس ،  
لا يكاد يشعر بشيء مما حوله . ثم التفت وقال لها : إذن هو جاسوس  
متنكر ! قالت : ذلك ما أعتقد يا مولاي ولا أرتاب فيه . فظل  
يدور في الغرفة دورة الهائم المختل<sup>(١)</sup> لا يهدأ ولا يترىث ، وظل  
على ذلك ساعة ثم انقض بغتة على رذائه فاخطفه وخرج من الغرفة  
مسرعاً . فأدركته ميلترا وتعلقت بأطراف ثوبه وقالت له : أين  
تريد يا مولاي ؟ قال : أريد أن أقبض على ذلك الجاسوس المجرم  
وأرفع أمره إلى الأمير ليرى رأيه فيه ، قالت : إن القيثارة قد  
انقطع صوتها . ولا بد أن يكون قد ذهب لسبيله . فدعه وشأنه ،  
قال : لا بد لي من أن أكشف أمره على كل حال حتى لا يعود  
إلى هذا المكان مرة أخرى ، قالت أضرع إليك يا سيدي أن تملك

---

(١) المختل . الذي ذهب عقله

نفسك وأن تهدأ لحظة واحدة حتى أتم لك بقية حديثي . فجمد في مكانه وقال لها : ماذا عندك بعد ذلك ؟ قالت : إن كنت تريد أن ترفع أمر الرجل الى أبيك ليعرف حقيقة فاعلم أنه يعرفه حق المعرفة . بل هو أعلم به مني ومنك ! فثار ثأره وصرخ في وجهها قائلاً : ماذا تقولين أيتها الفتاة ؟ وجرّد سيفه من غمده وأهوى به عليها ، فاستخذلت له <sup>(١)</sup> ومدت إليه عنقها وقالت : اضرب يا مولاي . فدمي حلال لك . وإن شئت فاستمع مني كلمة واحدة قبل أن تفعل . فإن شرفك وشرف بيتك رهن بما أقول ! فجمد السيف في يده وظل شاخصاً إليها ينتظر كلمتها ، فقالت : نعم . قد تم الاتفاق بين أبيك وزوجته وذلك الحاسوس التركي على أن يخلي أبوك تخوم المملكة من حراسها هذه الليلة ؛ لتتمكن الجيوش التركية من احتيازاها . فإن فعل أصبح في الغد سيد البلقان ومليكها ، قال . ومن أين لك علم ذلك ؟ قالت : قد سمعت الحديث الذي دار بينهم في هذا الشأن ، ورأيت ورقة منشورة بين أيديهم يقرأونها ويتداولونها وما أحسبها إلا وثيقة العهد الذي تعاهدوا عليه ؛ فإن كنت لا تزال في ريب من ذلك فدونك الغرفة المجاورة لغرفة الأميرة فادخلها برفق وهدوء ودع أذنك على خصاص <sup>(٢)</sup> الباب المغلق بينها ، كما صنعت أنا منذ ساعة . تسمع ما يتحدثون به ولك حكمك بعد ذلك .

فشعر قسطنطين أن الأرض والفضاء تدور به . وأن الشمس

(١) استخذى . خضع

(٢) ثقب الباب .

قد لبست قناعها الأسود فما يرى شعاعاً من أشعتها ، وأى فرائصه ترتعد وتضطك فما تكاد تحمله فتراجع الى جدار قائم وراءه فأسند ظهره إليه حتى هدأ قليلاً ، ثم مشى بتحامل على نفسه حتى دخل الغرفة التي وصفتها ميلترا . ومشى إلى الباب الموصل بين الغرفتين ووقف بمحاذيه يتسمع فلم يسمع شيئاً . حتى طن أن الغرفة حالية ، ثم سمع صوت أبيه فانتبه وتجمع للاصغاء . فإذا هو يقول لزوجته بصوت حافت منهجج<sup>(١)</sup> : هل سافر الرجل ؟ قالت : نعم يا سيدي ! وما أحسب إلا أنه تجاوز أطراف التخوم الساعة . فإن جواده أفره الحيات<sup>(٢)</sup> وأسرعها ، فصمت ولم يقل شيئاً . فذنت منه وقالت له بغمة حلوة ساحرة : ما هذا الاصفرار الذي يكسو وجهك يا ميشيل ؟ وما هذه الكآنة السوداء التي تتدجى في عينيك<sup>(٣)</sup> ؟ فهل أنت نادم على ما كان ؟ قال : لا . ولكنني أخشى الفشل<sup>(٤)</sup> قالت : لا أعرف للفشل باباً يمكنه أن يدخل عليك منه ، فأنت قائد الجيش وصاحب الأمر والنهي فيه ، فإن كان كل ما يعينك من الأمر ألا تظهر يدك في هذا العمل فقم الساعة واللس ثياب أحد الحراس وادهب إلى مكان الحارس الأول القائم على حراسة الرابية الأولى وارقبه حتى تأتي ساعة انصرافه واستبداله فأظهر له كأنك الحارس الذي يخلفه في مكانه واهتف له بكلمة السر التي بثتها بين جنودك وحراس المدافعة

(١) صوت منهجج . متقطع مرتعش .

(٢) أكرم الجياد .

(٣) الدعي : الظلام . ويتدجى : يظلم .

(٤) يريد من معنى الفشل هنا : الإحفاق والفحشة

كثيرون لا يكاد يعرف بعضهم بعضاً - فإذا انصرف لشأنه أخذت مكانه من حيث لا يعلم من أمرك شيئاً ، حتى إذا رأيت الجيش التركي مقبلاً في منتصف الليل ، وعلمت أنه قد أشرف على التخوم وملك رأس الطريق إلى « فيدين » عدت أدراجك إلى القصر متكرراً كما ذهبت لم يشعر بك أحد في دهابك أو إيابك ، وكأننا قد فوجئنا بهذه النارلة مفاجأة لا نملك معها للأمر دفعا ولا رداً .

فطارت نفس قسطنطين شعاعاً<sup>(١)</sup> عند سماع هذه الكلمات ، وكاد يصرخ صرخة عظمى يرجع بها القصر وأرجاؤه ، لولا أنه طمع في أن يسمع من أبيه كلمة شرف وإناء بهدم صرح تلك الخيانة الذي تبنيه يد زوجته . فأرهدف أذنيه لسمع جوابه . فسمعه يقول بنغمة الفارح المغتبط ، بعد كلام كثير لم يفهمه : نعم . هذا هو الرأي السديد ، ولقد أمنت الآن كل شيء . أتيتني بلباس الحار ، فقد عزمت ولا مرد عزمي . فتهافت على عنقه وقبلت قبلة طويلة رن صوتها في أرجاء الغرفة ، ثم ذهبت لشأنها .

نما سمع قسطنطين هذه الكلمة حتى أظلمت عيناه ، واكفر وجهه ، وتداركت ضربات قلبه ، وحاول أن يصيح فخاناه صوته ، فسقط مغشياً عليه . ولكن بين ذراعي ميلترا . لأنها كانت واقفة وراءه ترصده من حيث لا يشعر بمكانها ، حتى إذا هوى تلقته بين ذراعيها وقادته إلى غرفتها .

---

(١) يقال : طارت نفسه شعاعاً أي تفرقت قلماً ، كأنما تبعثرت خواطره طائرة فلا يكاد يجتمع رأيه في أمر .



## الجبينة

جتم الليل في عشمه ونشر أجمته السوداء على الكون بأجمعه ،  
 فهجم تحت ظلالها الأحياء جميعاً من بشر وحيوان ، ولم يبق  
 ساهراً وسط هذا السكون المخيم إلا عينا القائد برانكومير في شعب  
 تراجان يديرهما ها هنا وها هنا ، فينظر بهما تارة أمامه وأخرى  
 وراءه ، ليرى هل يرصده أحد أو يتأثر حركاته وأعماله ؟ ويقلبهما  
 أحياناً في صفحة السماء فيرى عيون النجوم محدقة به ، فيخيل  
 إليه أنها عيون الله ناظرة إليه نظرات الوعيد والتهديد ، وكان  
 صائحاً يصيح به من جوانب الملاء الأعلى : اصنع ما تشاء أيها  
 الرجل الخائن ، واكتم عملك عن عيون الناس جميعاً ، فإني ناظر  
 إليك ومسجل عليك هذه الخيانة العظمى التي تجنيها على وطنك  
 وقومك ، فيتضاءل ويتصاغر ويمر بمخاطره قول أمه له في عهد  
 طفولته فيما كانت تعلمه عليه من آداب الحكماء وأقوالهم : « إن  
 كواكب السماء ونجومها تشهد بين يدي الله على جميع جرائم  
 البشر التي ليس لها شهود ! » ثم لا يلبث أن يسري عن نفسه  
 ويذهب به خياله إلى الملك وعرشه وتاجه وصولجانه ، وعره  
 ومجده . ثم يلقي نظرة عامة على الجبال المحيطة به والسهول المنبسطة

من حوله ، والأنهار المائجة بأشعة التجوم ولألائها ، فيقول :  
غداً تصبح هذه الجزيرة كلها جزيرتي ، وأهلها خدمي وحشمي .  
يأتمرون بأمرى ، ويدعون لقوتي وسلطاني وغداً يتلأل التاج  
على جبين بازليد ، فتصبح أسعد نساء العالم أجمع . وأصبح  
بسعادتها أسعد رجاله ، ثم يخيل إليه كأنه يرى بازليد مائلة بين  
يديه تنظر إليه نظراتها الساحرة الفاتنة ، فيمد ذراعيه لاستقبالها  
ويناجيها قائلاً :

لاني لا أزال على العهد الذي عاهدتك عليك مذ فارقتك  
حتى الساعة ، لم أندم ، ولم أتردد ، ولا مرّ بخاطري أن أحفل  
بشيء في العالم سوى أن أنيلك البغية التي تبتغيها .

إن القبلية التي وضعتها على شفتي منذ ساعة قد اثلجت صدري  
واسكنت جميع مخاوفي ووساوسي ، فأنا أقدم على الجريمة إقدام  
الماديء المطمئن ، لا أشعر بثقلها ، ولا أفكر في نتائجها ، بل  
لا أشعر أنها جريمة يخفق لها قلبي خفقة الأسف والندم .

لقد أقسمت لك على الوفاء بالعهد ، ولا بد لي من أن أبرر  
بقسمي ، ولو كنت أقسمت لك على حرمان نفسي منك – وأنت  
الحياة التي لا حياة لي بدونها – لاستحييتك أن أحث في قسمي  
أو أن أنخيس بعهدي<sup>(١)</sup> .

أقسمت لك أن أخون وطني وها أنذا أخونه كما أردت راضياً

---

(١) خامس معهد ينخيس . غدر ونكث .

مستسلماً لا أندبه . ولا أرى له فرضاك هو الوطن كله ، بل هو  
الدنيا بأجمعها ، فليذهب الوطن كله وليفن العالم بأسره ، فأنت  
لي كل شيء فيهما .

وكان يحدث نفسه بهذا الحديث ، وهو جالس على رابية  
مرتفعة في شعب « تراجان » تحت القوس الروماني بجانب مضبة  
عالية من الخطب أعدت للاحراق إنذاراً للجيش بالعلو عند زحفه ،  
وكانت المضبات المحيطة بتلك الرابية المبعثرة من حولها سوداء  
قائمة تترامى في ظلمة الليل ووحشته في صور وحوش مخيفة هائلة  
فاغرة أفواهها أو مقعرة على أذنانها<sup>(١)</sup> أو متوترة للهجوم فلا يقع  
نظره عليها حتى يطير قلبه شعاعاً ، فيسرع إلى الاغتماض فلا  
يفارقه خيالها إلا بعد حين .

وما كان الرجل جباناً ولا رعديداً ، فهو بطل البلقان وحاميه  
وسيد من أنجب به ميادين قتاله وساحات نزاله ... ولكنها الخربما  
تنزع قلب المجرم من جنبه ، وتغشى على عينيه البصيرتين فيصبح  
بلا قلب وبلا نصر - يرى ما لا يرى الناس ويخشى ما لا يخشونه .  
فهو لا يخاف الوحوش والهوام<sup>(٢)</sup> والجن والشياطين والصخور  
والأحجار . بل يخاف جرائمه وآثامه ! .

ولأنه كذلك إذ نخيل إليه أن إحداها تتحرك من مكانها وتتحلل

---

(٢) مقعرة على أذنانها : جالسة مثل جلوس الكلاب .

(١) الهوام : دواب الأرض كالحيات ونحوها .

تحلحل الليث المتوثب<sup>(١)</sup> فاستطير قلبه فرقاً ورعباً . وحاول أن  
يتهم نظره ويستزيب به ، فلم يستطع لأنه ما لت أن رأى في  
ذروة تلك الهضبة رأساً يتحرك وينظر إليه بعينين متقدتين . هصرخ  
صرخة الكلب الحمار الذي يسبح للشبح المقل نحوه . لا جراءة  
وإقداماً ، بل جساً وفرقاً ، وقال : من هناك ؟ فأنحدر الشبح إليه  
من أعلى الهضبة ، وقال له بصوت خشن اجش : لا ترتع يا أبت ،<sup>(٢)</sup>  
فأنا ولدك قسطنطين ، هوثب من مكانه وثبة المسرع . وقال له  
بصوت متهدج مخنق : ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ ومن أنباك  
أي في هذا المكان ؟ قال له : وأنت ما الذي جاء بك إلى هنا يا  
أبت وماذا تريد أن تفعل ؟ إنني أسألك عن مثل ما تسألني عنه !  
فأسقط في يده<sup>(٣)</sup> وطار طائر عقله . وأحس بالخطر المقل ،  
إلا أنه تجلد واستمسك وقال بلهجة الأمر المسيطر : وما سؤالك  
عن مثل هذا أيها الفتى الجريء ؟ وما شأنك بي . وعما أفعل ؟  
وكيف فارقت حصنك في هذه الساعة من الليل ؟ ومن أذنك  
بذلك ؟<sup>(٤)</sup> قال : لم أستأذن في ذلك أحداً غير واجبي إنني أعلم  
كل شيء يا أبت ، وأعلم أنك ما جئت إلى هذا المكان إلا لترتكب  
أفظع جريمة يرتكبها إنسان في العالم ! فصاح برانكومير . وهو  
يتميز غيظاً وحنقاً<sup>(٥)</sup> : كذبت أيها الغلام الوقح واجترأت على

(١) تحلحل . تحرك للانتقال من موضعه .

(٢) ارتاع يرتاع . خاف . لا ترتع : لا تخف .

(٣) أسقط في يده : تحير فلم يدر ماذا يفعل

(٤) الفمصح ومن أذن لك في ذلك .

(٥) يتميز غيظاً . يتفعل من الغيظ .

ما لم يجترأ عليه أحد من قبلك ؟ عد الآر إلى حصنك ، ولا  
تبقى بعد صدوري أمري إليك لحظة واحدة ، فإن حاوشني في  
ذلك فانت أعلم عما يكون ، إنك لا تفهم شيئاً من أسراري  
وحويصات نفسي<sup>(١)</sup>

وليس لك أن تسألني عنها لأنك جندي والجندي لا يسأل  
قائده ، بل يأتمر بأمره ولو كان الموت الزوأم ، عد إلى مخفرك  
وتولى حراسته بنفسك ، ولا تأدن لحفلك بالغصص لحظة واحدة .  
وسأحدثك غداً في هذا الشأن حديثاً طويلاً تعلم منه كل شيء .

فتضعض قسطنطين أمام هذه اللهجة الرزينة الهادئة ، وجثا  
على ركبتيه بين يديه<sup>(٢)</sup> وقال له : عفواً يا أبت ، لقد أخطأت  
في سوء ظني بك ، فانت أشرف من أن تضع نفسك حيث أرادوا  
أن يضعوك ، وما أحسب كلمتك التي قلتها للأميرة منذ حين في  
تلك الخلوة الرهيبة ، إلا كلمة مزح ودعابة أردت بها مداراتها  
وملايتها ، أو الهزء والسخرية بها ، حتى إذا فصلت عنك وخلا  
بك مكانك محوت بظهر يدك عن فمك تلك القبلية الأثيمة التي  
ختمت بها ذلك العهد الأثيم ، ثم قلت لها في نفسك : إنني قد  
عاهدت الله أيتها المرأة البلهاء قبل أن أعاهدك أن أكون أميناً  
لوطني وفيّاً له ، فلا أحفل بعهد غير هذا العهد ، ولا بيمين غير  
تلك اليمين .

(١) الخويصة : تصغير الخاصة ؛ يعني خصائصه الدقيقة .

(٢) جثا يجثو : جلس بين يدي من هو أعلى منه جلسة التصرع والاسترحام .

ثم خفت أن تكون قد استرابت بك "أ أو مرت بخاطرها  
حلجة شك في أمرك فأخذت للأمر حيطتها من طريقك ، فمجت  
بنفسك لتتولى حراسة التخوم وحمايتها ، حتى إذا شعرت بسواد  
الجيش التركي مقبلاً أشعلت النيران إنذاراً لجيشك بالخطر الداهم  
وخبيت آمال أعدائك فيما يكيدون لك ولقومك .

أليس كذلك يا أبت ؟ نعم . إنه كذلك بلا شك ولا ريب ،  
فأشعل النار الآن ودعها تسطع في هذا الفضاء الواسع ، وتبدد  
دلائلها هذه الطلعات المتكاثفة ، فإني أشعر بسواد مقبل من بعيد  
يتقدم شيئاً فشيئاً . وما أحسبه إلا فيالق العدو وجيوشه . انظر  
يا أبت واخترق بظرك هذا الفضاء الشاسع ، ألا ترى تحت خط  
الأفق أشباحاً تتحرك وتتقدم ؟ إنه ليخيل إليّ أنها أعلام الجيوش  
التركية تحفّق في أحواشها ، وربما لا تمضي ساعة أو بعض ساعة  
حتى تكون قد وصلت إلى هنا ! .

أسرع بإشعال النار أو عد أنت إلى قصرك وخذ لنفسك راحتها  
فيه ودعني أتولى عنك إشعالها . فالحظر موشك أن يقع ! ما من  
ذلك رد !!

ما لي أراك جامداً يا أبت ؟ وما هذا الذهول الذي يتولاك ؟  
أشعل النار أو تنح عن طريقني لأشعلها .. أشعلها فالوقت ضيق  
من التأمل والتفكير ! .

---

(١) داخلتها الرية

فرغ برانكو مير رأسه ونظر إلى ولده نظرة جامدة وقال له : إذن أنت تنهمني يا قسطنطين وتراب بي ! ما أشقائي وأسوأ حظي ! ولدي وفلذة كبدي ووارث اسمي ولقي يتعجني ويتجسس عليّ ويقف وراء الأبواب ينظر من خصائصها <sup>(١)</sup> لسمع ما يدور بيني وبين زوجي في خلوتي ! فياللعار ويا للشقاء ! أيها الولد العاق المسكين ! اذهب لشأنك فأني أريد أن أنقى هنا الليلة وحدي ! ولا تجازف بمخالفة أمر قائد تعود أن يأمر فيقطع ، وليس من شأن مثله أن يصبر لحظة واحدة على مخالفة أمره . إنني سأبقى هنا وحدي وسأشعل البار بنفسي عندما أريد إشعالها ، فلا حاجة بي إلى مشورتك ومعونتك ، عد أدراجك إلى حصك ولا تضيف إلى جريمة التجسس على أبليك جريمة معاندته ومخالفة أمره . واعلم أنك الآن حندي أمام قائده . لا ولد بين يدي أبيه .

فأق قسطنطين ونأوه آهة طويلة وقال : وارجمته لي ولك يا أبت ! الأمر صحيح لا ريب فيه ، والجريمة على وشك الوقوع <sup>(٢)</sup> .

ثم صمت صمتاً طويلاً لا تطرف له فيه عين ، ولا تنبث له جارحة ثم انتفض فجأة وصاح بلهجة شديدة صارمة : أبي ، إنني سأبقى هنا .

فدهش ميشيل لعناده وصلابته وقال له : ما أراي الآن إلا

(١) نفوسها .

(٢) الانمخ أن يقال ، والجريمة توشك أن تقع .

أمام عدو لدود لا ولد نار مطيع . قال . لا يا أبت : بل أمام ولد  
 بار مطيع ولولا ذلك ما جشمت نفسي مشقة المحيء إلىسك  
 في هذه الساعة من الليل ، ولا وقفت أمامك هذا الموقف الخطر  
 المميت ، إنني لم أفعل ذلك من أجل نفسي ، بل من أجلك ومن  
 أجل شرفك . إنني أحبك كما أحب وطني وما على وجه الأرض  
 شيء أحب إليّ منكما . وكما أتمنى له أن يعيش حراً مستقلاً ،  
 أتمنى لك أن تعيش شريفاً عظيماً ، فإذا ضاع وطني وكان ضياعه على  
 يدك أنت فقدت في ساعة واحدة جميع ما أحب في هذه الحياة ،  
 فارحم ولدك المسكين الذي لا يزال يضر لك في قلبه حتى الساعة  
 ذلك الحب القديم الذي تعرفه ، واستبق له تلك السعادة التي لم  
 يبق له في الحياة سعادة غيرها ، تنح قليلاً عن طريقي وأذن لي  
 أن أصل إلى هذه الرابية لأشعل نارها فيراها حراس الروابي جميعاً  
 فيشعلوا نيرانهم فينهض الحيش للدفاع عن الوطن ، فقد أزلت  
 الساعة ولم يبق سبيلٌ للأناة والتفكير .

سم اندفع إلى مكان الرابية مسرعاً ؛ فاعترضه أبوه ووقف  
 في وجهه وقفه الصحرة العاتية في وجه الريح العاصف ، وقال  
 له : لا آذن لك بالتقدم خطوة واحدة ، ودون ما تريد الموت  
 الزوأم !.

فطاش عقل قسطنطين وجن جنونه وقال له : احذر يا أبت !  
 فإن في هذه السماء المشرقة علينا بنجومها وكواكبها إلهاً ينتقم من  
 الظالمين ، ويجازي الخائنين بخيانتهم شر الجزاء ، وما أنت بتاج  
 من عقابه ، ولا مفلت من جزائه . لقد حدثني نفسي في تلك



الساعة المائلة التي سمعتك فيها توأمر على وطنك وأمتك ، بأفزع ما تحدث به نفس صاحبها ، وكنت على وشك أن أرفع أمرك إلى الملك أنت وزوجك ، وأكشف له دخيلة أمركما . فلم أفعل ، لأنني ضمنت لك على الموت الدنيء الذي يموت الخائنون المجرمون أمثالك . وأسفقت على ذلك الشرف العظيم الذي بلغ في علوه مناط السماك الأعلى أن يصبح مهاناً مذالاً<sup>(١)</sup> تدوسه الأقدام ونطوئه الحال ، وكرهت أن يمر السابئة من رعاك الناس وغوغائهم على قبرك بعد موتك فيصقوا عليه كأنما يصبقون على قبر الشيطان وربما نتوا عن جثتك ، تشفياً منك وانتقاماً ، فأخرجوها من قبرها . وأسلموها إلى جوارح الطير وكواسر الوحش تمزق أشلاءها وتبعثر عظامها .

أشفقت عليك من كل هذا ، وأشفقت على نفسي أن يراني الناس في طريقي فيشيروا إليّ بأصابعهم ويقولوا : هذا هو الولد السافل الذي وشى بأبيه وأورده مورد التهلكة . فلبس الولد ولبس الوالد ولا يلد الخونة المجرمون غير الأدنياء الساقطين ! فهنّعت نفسي وملكيت عليها زمامها وقلبي يلدوب حزناً ولوعة ، وقلت . لعلمي أستطيع أن أتدارك الأمر من طريق غير تلك الطريق وأن أتمكّن في آن واحد من إنقاذ أبي وإنقاذ وطني من حيث لا أخسر أحداً منهما في سبيل الآخر ، فجثت وقلبي ممتليء أملاً ورجاء .

---

(١) مذالاً : متصفاً .

أما الآن وقد يشست من كل شيء فإني أكاد أشعر بالندم على ضياع تلك الفرصة التي ملكتها ساعة من الزمان فسرحتها ولم أنفع بها ، وكان صوتاً خفياً يهتف بي من أعماق قلبي : إنك قد أشفقت على نفسك مرة وعلى أهلك أخرى ولم يخطر ببالك لحظة واحدة أن تشفق على وطنك وقومك .

فأسألك مرة أخرى يا سيدي ، وربما كانت هي المرة الأخيرة . أن تتنحي عن طريقي ، فإني قد عزمت عزماً لا مرد له أن أقنح هذه الراية لأضرم نارها رضىت أم أبيت ، سقطت السماء على الأرض أم بقيت في مكانها ! .

فأطرق برانكومير لحظة ذهبت به فيها الهموم والأفكار كل مذهب ، ثم رفع رأسه فإذا دمة كبيرة تترقق في عينيه ، ونظر إلى ولده نظرة عتب وتأنيب ، وقال له : نعم يا بني ! إنك أخطأت خطأ عظيماً إذ أضعت الفرصة العظيمة التي لاحت لك ، وقد كان جديراً بك أن تفرصها ولا تسرحها وأن تلقي في عنق أهلك في تلك الساعة التي رابك فيه من أماء ما رابك ، علا ثقيلاً تقوده به إلى حضرة الملك متهماً بإياه بجريمة الخيانة الكبرى ليأمر بقتله فتمتع نظرك برويته مصلوباً على باب المدينة والجماهير من حوله يصقون على وجهه ويصفعون قذاله <sup>(١)</sup> ويرجمونه بالحجارة على مرأى من ضباطه وجنوده وأسرته وأصدقائه وربما اشترك هؤلاء جميعاً معهم في عملهم .

---

(١) قناء .

نعم إنها فرصة ثمينة جداً قد أضعتها بترددك وتحيرك ، وقد كان جديراً بك أن تقدم لإقدام العازم المصمم كما كان يفعل أبوك لو كان في مكانك ، فقد عودت نفسي أنني إذا عزمت على أمر لا أتردد فيه ولا أترث ، وقد عزمت الآن على ألا أشغل هذه النار فلا أشعلها ولا آذن لك بإشعالها ، بل لا آذن لك بالتحرك من مكانك خطوة واحدة !.

فوقف قسطنطين حائراً ملتاعاً يترجح بين اللهب على وطنه الضائع والإشفاق على أبيه المسكين ، لا يستطيع أن يخون وطنه الذي نبت في تربته وعاش بين أرضه وسمائه ، ولا أن يعق أباه الذي أبرزه إلى الوجود ووهبه نعمة الحياة التي ينعم بها فأسند رأسه إلى صخرة كانت بجانبه حائراً مضطرباً تنوارد في رأسه الخواطر والأفكار يصارع بعضها بعضاً ويشند بعضها في أئسر البعض ، حتى بلغ منه الإعياء مبلغه فنظر إلى أبيه نظرة منكسرة حائرة تفيض حزناً وبأساً ، وقال :

أيرضيك يا ميشيل برانكومير يا بطل البلقان وحاميها وأشرف من أنجبت به أصلاب رجالها وأرحام نساها ، أن يملك العدو علينا هذه البلاد العزيرة الكريمة فيقتل أبناءها ويستحل حرمانها ، وينكس صلبانها ، ويهدم صوامعها ومعابدها ، ويغرس فيها كل صوت غير صوت الأذان على ذرى المنائر ؟ قال : نعم يرضيني ذلك لأنني أحسنت إليها فكفرت بنعمتي وجازتني شر الجزاء على صنيعي ! قال : إن لم تفعل ذلك من أجلها فافعله من أجل ربك ، قال : أي رب تريد ؟ إنني لا أفعل شيئاً من أحله ، فهو بماليه

مداج لا يجب إلا قساوسته وكهانه ، ولا يرى رؤوساً تصلح للتيجان  
غير رموسهم الصغيرة الصلحاء ولكنني سأنتزع بالرغم من ذلك  
التاج من ذلك الرأس الذي توجه به وأضعه على رأسي ، قال :  
ولكنك تعلم يا أبت أن التاج الذي يتناوله متناوله من يدعوه عدوه  
ليس بتاج شريف . قال : ولكنه تاج على كل حال ! قال : ألا  
تخاف أن يثقل يوماً على رأسك فيهبط إلى عنقك ويستحيل إلى  
طوق حديدي يخنقك ويمضي عليك ؟ قال : إنك تهمني يا قسطنطين  
وتهديني ، ولقد بلغت موقاحتك الغاية التي لا غاية وراءها ،  
فتجمل قليلاً ولا تس أنك إنما تخاطب أبك ! قال : عفواً يا  
أبت وغفراً فلقد بلغ بي اليأس مبلغه حتى أصبحت لا أفقه ما  
أقول !

ثم دنا منه وأمسك يده وأنشأ يخاطبه بصوت صعف متهافت  
ويقول :

عد إلى نفسك لحظة واحدة يا أبت ، وراجع فهرس تاريخك  
الشريف واذكر تلك الأيام المجيدة التي أليت فيها في الدفاع  
عن وطنك وقومك بلاء سجله لك التاريخ في صفحاته البيضاء  
بأقلامه الذهبية وتلك الوقائع الحربية الهائلة التي كنت تستقبل فيها  
الموت استقبال العروس ابتسامات عروسه الحسنة ليلة رفافها ،  
وتضحك للهلول فيها ضحك الزهر لقطرات الندى ، والنبت  
لأشعة الشمس . ثم تعود منها منصوراً مظفراً يستقبلك نساء القرى  
وفتياتها في كل طريق مررت به بدفوفهن وعيدانهن يغنينك ويرقصن  
بين يديك ، ويرتشفن قطرات الدماء من كؤوس جراحاتك وينثرن

الأزهار تحت قدميك ، وبياديتك باسم المخلص العظيم ، وخليفة  
المسيح في الأرض .

اذكر تلك الأعلام الوطنية التي تحقق على أبواب المدينة  
وأسوارها ، وترنحها طرباً وسروراً عند رؤيتك ، وتراميتها على  
قدميك كلما مررت بها كأنها تحاول تقليلهما ولثهما ؛ واخسر  
إن مررت بها بعد اليوم أن تشيخ بوجهها عنك احتقاراً وازدراء  
وتضم أطرافها إلى نفسها ترفعاً وإباء حتى لا تلمس جسمك ولا  
تحقق فوق رأسك .

لا تنع أمتك يا أبت بعرض تافه من أعراض الحياة ، فالنتاج  
الذي يتناوله صاحبه من يد عدوه ليس بتاج الملك ؛ إنما هو قلنسوة  
الإعدام .

كيف يهنوك ذلك الملك وأنت ترى أمتك المسكيننة راسفة  
في قيود الذل والاستعباد تبكي وتستصرخ ولا منجد لها ولا معين ،  
وتئن في يد عدوها الفاهر أنين المحتضر المشرف ولا من يسمع  
أنينها ، أو يصغي إلى شكاتها .

كيف يهنوك ذلك العيش وأنت ترى أبناء وطنك أسارى  
أذلاء في قبضة أعدائهم يسوقونهم بين أيديهم سوق الجزار ماشيته  
إلى الذبح فإن خفق قلبك خفقة الرحمة بهم أو العطف عليهم لا  
تستطيع أن تمد يدك لمعونتهم وإنقاذهم ، لأنك قد بعثهم ونقضت  
يدك منهم فلا سبيل لك إليهم بعد ذلك .

اذكر يا أبت تلك الأيام التي لقي فيها هذا الشعب المسكين

على يد هؤلاء القوم الظالمين ما لم يلقَ شعب في الأرض على يد  
فاتح أو مغتصب ، أيام كنا غرباء في أوطاننا ، أذلاء  
في ديارنا ، نمشي فيها مشية الخائف المدعور ، ونتنفض انتفاضة  
الغارب المنتكر لا نعلم أسقط الشقاء علينا من علينا السماء ، أم  
ينبت إلينا من أعماق الأرض ؟ وهل يخرج الخارج منا من منزله  
ليعود إليه . أو ليرد المورد الذي لا رجعة له منه أبد الدهر ؟

اذكر أيام كانوا يملكون علينا كل شأن من شئون حياتنا حتى  
زروعنا وضروعنا<sup>(١)</sup> ومياه أنهارنا . وأشعة شمسنا . فأصبحنا  
ولا شأن لنا في وطننا إلا كما يكون لعمال المزرعة ونواطيرها<sup>(٢)</sup>  
من الشأن فيها ويحصون علينا كل حركة من حركاتنا وكل سكتة  
من سكتاتنا . حتى نبضات قلوبنا وخواطر أفكارنا ، وفلتات  
ألسنتنا ، وأحاديث آمانسا ، ويحاسبونا على النظرة واللفظة ،  
موانة والزفرة والقومة والقعدة ثم يقضون فينا بما يشاءوا من  
أقضيتهم فلا ينحسر ظلام ليلة من الليالي إلا عن مصلوب تهفو  
به الرياح السافيات ، أو طريح مرتين في أعماق السجون !

اذكر أيام كانت كلمة الوطن جريمة يعاقب عليها قائلها  
بجرمانه من ذلك الذي يهتف باسمه<sup>(٣)</sup> ، وكلمة الدين إنمأ عطيماً  
يذهب بصاحبه إلى أحد القرنين ، إما المنشور . وإما المحفور<sup>(٤)</sup> .

(١) الفروع : جمع فرع ، ويقصد به الماشية الحلوب .

(٢) النواطير : جمع ناطور ، وهو عيدان من قصب أو خشب تصنع على هيئة  
إنسان وتكسى من ثيابه ثم تنصب في الحقل أو في الكرم لتلذذ عنه العليز .

(٣) يعني النبي .

(٤) يعني الصلب على أهواذ من خشب ، أو الدفن في التراب !

اذكر الدموع التي كانت تذرفها الأمهات على أطفالهن المذبوحين فوق حجورهن . والصيحات التي كانت نصيحها الزوجات والأخوات الواقفات بأبواب السجون على أزواجهن وإخوتهن ، والزفرات التي كان يصعدها اليتامى التاكلون على حافات القبور حنيناً إلى آبائهم وأمهاتهم الهالكين ! .

اذكر ذلك كله ولا تنسه ، لا بل أنت تذكره وتعرفه كما تعرف نفسك ، لأنك أنت الذي خصصته علينا ومثلته لأعيسا وقلوبنا ، وأربتنا من ويلاته ومصائبه ما لم نره ، ولطالما كنت تبكي عند ذكره بكاء الطفل التاكل أمه ، فنبكي لبكائك وننشج لنشيجك<sup>(١)</sup> .

ألا تسمع هذه الأصوات المخيفة التي تحملها إلينا الرياح من ذلك الجانب الغربي ؟ إنها أصوات الموتى من جنودك وأبطالك يضحجون في قبورهم صائحين : واويلتنا ، ها هي السماء توشك أن تنفض على الأرض ! وها هي أقدام العدو تدنو من مخيم البلقان وبطاحه ، وتوشك أن تطأ بنعالمنا قبورنا وتزعجننا من مراقدنا ، وها هو قائدنا المحبوب برانكومير العظيم الذي سفكنا دماءنا وبذلنا أرواحنا في سبيل ظفره وانتصاره ، يساوم عدونا في وطننا ، ويحاول أن يبيعه نساءنا وأولادنا الذين تركناهم أمانة في يده ، ففي سبيل الله ما سفكنا وفي ذمة القدر ما بذلنا ! .

ألا تسمع هذه المهمة الهابطة علينا من آفاق السماء ؟ إنها أصوات الملائكة الأبرار يصيحون ويصخبون وهم وقوف بين

---

(١) النشيج : غصة الحلق بالبكاء .

يدي ربهم يقولون له : حتى متى يسع حلمك وأناذك هذا الخائن  
الغادر الذي يبيع أمة من أمم المسيح إلى أعدائها وأعداء دينها ،  
وسلم إليهم أرواحها وأعراضها ، فاقض اللهم فيه قضاءك العادل ،  
واضربه الضربة التي تجعله عبرة للخائنين ، ومثلاً في العاديين .

إليّ أيتها الذكريات القديمة والانتصارات العظيمة والأيام  
الغر المحجلة<sup>(١)</sup> المكتوبة بمداد الذهب في صفحات التاريخ ، مدى  
إليّ يد مساعدتك ، وأعينني على ذلك الرجل البائس المسكين .  
وتمثلي أمام عينيه لتذكره بنفسه وتاريخك عله يحمر خجلاً عند  
رؤيتك ، ويقشعر بدنه رهة من خيال الجريمة التي يريد ارتكابها .

إليّ أيتها الفصائل الإنسانية والكلمات العالية ، من شرف  
وعزة وترفع وإباء . وأمانة وإخلاص ؛ تعالين إليّ جميعاً واجثن  
معي بين يديه . واضرعن إليه أن ينصمكن ، ويعدل في أمركن .  
ولا يقضي للرديلة عليكم وقلن له : إنك إن خذلتنا ، ونقضت  
بذك منا ، فلن نخذلنا من بعدك ناصراً ولا معيناً .

يا أطفال البلقان وصغارها الناشئين من فتية وفتيات أقبولوا  
إليه جميعاً واجتمعوا من حوله وتعلقوا بأهداب ثوبه ، واسكبوا  
ما تستطيعون أن تسكبوا من دموعكم وشئونكم<sup>(٢)</sup> تحت قدميه ،  
وقولوا له : رحمة بنا أيها الأب الرحيم والسيد الكريم وحساناً

---

(١) العرس الأغر . الذي في وسفه بياض . والمجمل . الذي في قوائمه بياض ؛  
ويقال . يوم أمر . مجمل : يعني يوم أبيض ، من أيام الماسر ، ومن أيام النصر  
والعادة .

(٢) الشئون : مجاري الدمع في العين .



علينا ، لا تكلنا إلى أعدائنا وأعداء وطننا ، ولا تجعل مستقبلنا ومستقبل بلادنا في أيديهم يسومونا الخسف ويذيقونا ألوان العذاب فإن أبيت إلا أن تفعل فجرد سيفك من غمده واقطع به أعناقنا ، فذلك خير لنا من هذا العيش المؤلم المرير .

وكان يتكلم ودموعه تنهمر على خديه دائية ما تهدأ ولا ترقأ (١) وأبوه يضطرب بين يديه اضطراب الدوحة (٢) المائلة في مهاب الرياح الأربع ويزفر زفرات محرقة ملتهبة ، وقد قامت في نفسه تلك المعركة الهائلة التي تقوم في كل نفس شريفة بين الواجب والشهوة ، يتمثل له الأول في وجه قسطنطين العبوس المكتئب فیرتمد ويضطرب ، ومترامى له الثانية في وجه بازليد الضاحك المشرق فيخوز ويتضعض ، لا يستطيع أن يعرض عن نداء وطنه ، لأنه نداء يصل إلى أعماق قلبه ويبلغ صميمه ، ولا أن يفلت من سلطان شهوته ، لأنه سلطان قاهر جبار لا يفلت منه قوي ولا ضعيف ، فوضع إحدى يديه على عينيه ، ومد الأخرى أمامه كأنما يطارد أشباحاً خفيفة هائلة تتقدم نحوه ، وظل يصيح بأعلى صوته : اصمت يا قسطنطين ! اصمت يا ولدي ، لا أستطيع أن أحتمل أكثر مما احتملت ، آه من القدر وأحكامه والدمر وتصرفاته ، وويلي من الشقاء المكتوب والبلاء الحتم ، من لي بيد قوية تنقذني من هذا الشقاء المحيط بي ، فقد أصبحت وما على وجه الأرض أحد أجدر بالرحمة والشفقة مني ، العنوني جميعاً يا

(١) ولا تحف .

(٢) الدوحة : الشجرة العظيمة .

أولادي وأبناء وطني ، وانتقموا مني بأفطع أنواع الانتقام ، فلاني  
خائن لثمن لا أستحق رحمتكم ولا مغفرتكم ، ثم صمت صمتاً  
عميقاً لا يبس فيه ولا يتحرك ، وظل على ذلك هنيهة ثم نظر أمامه  
نظرة الدهشة والذهول ، فخیل إليه أنه يرى شعباً يتقدم نحوه  
فمد يده إليه وأخذ ياجيه ويقول : بازليد ! ألا تستطيعين أن  
تخلي من ذلك القسم الذي أقسمته لك ، فقد ضعف كاهلي عن  
احتماله واحتمال أفعاله . ولا أريد ملكاً ولا تاحاً ولا صولجاً  
بل لا أريد أن أبقي على طهر الأرض يوماً واحداً . الموت ! من  
لي به في هذه الساعة فأنحو من همومي وآلامي .

فتهلل وجه قسطنطين غبطة وسروراً ، ووقع في نفسه أن  
الرحل قد تلوم واستخذى وبدأ يستفزع ذنبه ويستهلله ، فترامى  
على عنقه واحتضنه إليه وظل يقول بنغمة الفأرج المعتبط : أحمدك  
اللهم قد أنقذت لي أبي ! فحأ أبوه عليه وطلا متعاقبين ساعة لا  
يسمع فيها إلا تردد أنفاسهما ونشيع بكأتهما ثم افترقا بغتة وإشراً  
بأعناقهما<sup>(١)</sup> حينما سمعا في لحظة واحدة حسيب<sup>(٢)</sup> حيش العدو  
وهو مقل من ناحية الشمال ، وكان ما سمعاه في هذه المرة حقيقة  
لا وهماً فارتجلا في وقت واحد حركتين مختلفتين ، إذ وثب قسطنطين  
إلى الراية وثمة عظمى ليضرم نارها ، ووثب أبوه وثمة أعظم مسها  
فاعترض سبيله وصرخ في وجهه : قف مكانك لا تتقدم خطوة  
واحدة ! فأصاب قسطنطين مثل الجنون وقال له : تنع عن طريقي

(١) إشراپ ( عل وزن الطمان ) رفع رأسه لينظر .

(٢) الحيس : صوت خفي .

أيها المجرم اللئيم ، فقد فرغ صبري . قال : انك لا تستطيع أن تمر  
لا على جثتي . فارتعد قسطنطين وبرقت عيناه وذهبت به الأفكار  
لذاتها وقال له : أي كلمة هائلة نطقت بها أيها الرجل الشقي ،  
أي قضاء قضيت به على نفسك ! تنح عن طريقي فإن نفسي  
تحدثني بأفظع ما تحدث به نفس صاحبها في هذا العالم ، قال :  
إنك لا تستطيع أن تقتل أباك ، قال : أستطيع أن أفعل كل شيء  
في سبيل وطني ، لأنني وقفت سيفي طول حياتي على خدمتك  
وحمايتك والذود عنك أيام كنت لوطتك وقومك ، أما الآن فلاني  
أعتمد ذلك السيف نفسه في صدرك طيب النفس مثلولج القواد  
لأنني أعتقد أنني لا أعمده في صدر أبي بل في صدر خائن وطني ،  
قال : لا تنس أن لي يداً أقوى من يدك وسيفاً أمضى من سيفك .  
قال : لاني لا أجهل ذلك ولكنك تقاتل في سبيل الدناءة والخيانة  
وأقاتل في سبيل الواجب والشرف ، والله مطلع علينا من علياء  
سمائه ، وهو الحكم العدل بيننا . فجرد برانكومير سيفه وهجم  
على ولده هجمة قوية ، فجرد الآخر سيفه وتلقى ضرباته بأشد  
وأنكى منها ، وما هي إلا جولة أو جولتان حتى حكم القاضي  
العادل حكمه فسقط الظالم ونجا المظلوم !

فنظر قسطنطين إلى جثة أبيه الساقطة تحت قدميه نظرة جامدة  
صامتة لا يعلم ما وراءها ، ثم أعمد سيفه وصاح بأعلى صوته :  
حمتك اللهم فاني لا أستطيع أب أفعل غير ما فعلت ، ثم هجم  
على الرابية فأشعل نازها فضاءت بها أرض البلقان وسماؤها .

وفي اليوم الثاني نشر الملك أتين على الأمة هذا البلاغ :

« حاول العدو ليلة أمس تثبيت جيوشنا وأخذها على غرة<sup>(١)</sup> »  
وكاد يظفر بذلك لولا أن انتهت الفرقة الأولى من الجيش ونهضت  
للدفاع بقيادة ضابطها العظيم قسطنطين برانكومير فأبلى في المعركة  
بلاء عظيمًا ووقفت العدو في مكانه ساعة كاملة ، حتى نهضت  
بقية الفرق لمساعدتها ، فدارت معركة هائلة بين الجيشين انتهت  
بانتصارنا وانهمزم العدو إلى مواقعه الأولى ولكن المصاب العظيم  
الذي عم الجيش وشمل الأمة بأسرها هو موت قائدنا العظيم  
« ميشيل برانكومير » فقد وجد في أثناء المعركة قتيلًا بضربة سيف  
في خاصرته<sup>(٢)</sup> بين صخور تراجان تحت القوس الروماني ، وسيحتفل  
بتشييع جنازته غدًا احتمالاً عسكرياً جليلاً يليق بمقام شهيد الوطن  
وبطله العظيم !

أما الذي خلفه في قيادة الجيش فهو ولده الضابط الشجاع  
منقلد الأمة والوطن « قسطنطين برانكومير » .

---

(١) التثبيت : المفاجأة ليلاً . والغرة ( بكسر النون ) الغلظة .

(٢) جنبه .

## الضمير

مضى الليل إلا قليلاً وقسطنطين ساهر في فراشه لا يغمض له جفن ولا يطمئن له جنب ، لأن مصرع أبيه في شعب تراجان لا يزال ماثلاً أمام عينيه ما يفارقه لحظة واحدة وكان كأنه يرى الجثة بين يديه تتلوى وتتمرمر وتظر إليه نظرات حادة ملهمة ، وكان جرحها الدامي بين أضلاعها لا يزال يتدفق منه الدم فتار من مكانه هائجاً مذعوراً وحاول أن يطرد هذا الخيال عن نظره فلم يستطع ، فمد يده إلى ذلك الجرح الموهوم المائل أمامه يريد أن يعترض سبل الدم المتدفق منه فغله على أمره وارداد في تدفقه وانبثاقه حتى ملأ أرض العرق حميمها ، وصبح بلوه الأحمر القاني جميع ما فيها من فرش وأثاث وآية وثياب ، فاشتد فزعه وارتباعه ولم يستطع أن يحتمل أكثر مما احتمل ، فوقع مغشياً عليه :

وظل على ذلك ساعة حتى انفثأت حرارة دمه<sup>(١)</sup> فاستفاق من غشيته وجلس إلى نفسه بناحيها ويقول :

---

(١) انفثأت : هدأت .

إنني على ثقة من نفسي ، لم أفعل إلا ما يجب على كل رجل شريف أن يفعله ، فما هذا الخوف الذي يساورني ! وما هذه الصور المحيفة التي تراءى لي في يقظتي وأحلامي ؟ كان يجب عليّ أن أضرب - لأنه ما من ذلك بد - ففعلت ، فلم أرتاب في عملي ، ولم أرتعد ارتعاد المجرمين الآثمين إن الرجل لا يخاف إلا ذنبه ، وأنا لم أدنب إلى أحد ، لأن الرجل الذي قتلته كان يريد أن يقتل أمة بأسرها فأنقذتها بقتله ، بل أنقذت عشرين أمة من أمم المسيح في أوروبا ، الايحوز للابسان أن يقتل الأفعى دفعاً لأذاها ، والوحش كسراً لشترته <sup>(١)</sup> واللص اتقاء لضربه <sup>(٢)</sup> ! إنني لم أفعل غير ذلك فمالي أرى وجه السماء أجمر قانئاً ليله ونهاره ، ومالي أجد مذاق الدم في كل كأس أشربها من ماء أو خمر ، ومالي لا أستطيع النظر إلى يدي خوفاً ورعباً ، إنني لم أقتل أبى ، ولكنني أحبيته لأنه إن كان يحيا اليوم في قاوب الناس حياة العظمة والمجد ، وكان تمثاله إلهاً معبوداً يطيف به الشعب <sup>(٣)</sup> ويقبل أركانه ويتبرك بلمسه واستلامه ، وكان اسمه طغراء الأسماء الشريفة المسجلة في التاريخ - فلنما ذلك بفضل الضربة التي ضربته لإبائها ، ولولا ذلك لعاش بقية أيام حياته وعيش الأديناء الساقطين أو مات موت الخونة المجرمين .

وهنا انتفض واصفر وارفض جبينه عرقاً <sup>(٤)</sup> ، وقال بصوت

(١) حدته ونشاطه .

(٢) أطاف يطيف : أحاط ، أما طاف ( بغير الهزنة ) معناه : دار .

(٣) ارفض تفرق ، ويقال . ارفض جبينه عرقاً ، يعني تتأثر العرق على جبينه

ضعيف مخفق : نعم ! إن ذلك كله صحيح لا ريب فيه ، ولكنني  
قتلت أبي !

ثم لم يلبث أن عادت إليه مخاوفه ووساوسه ، فرأى الحشة  
والمصرع ، والطعنة النجلاء ، والدم المتدفق ، وسمع تلك الأصوات  
التي تهتف به في كل مكان : « يا قاتل أبيه ! يا أكبر المجرمين !  
يا عار البشرية وشنارها <sup>(١)</sup> » فجن جنونه ، وثار ثأثره ، وعادت  
له سيرته الأولى .

ولم يزل هكذا ليله كله : يهدأ حياً ويثور أحياناً ، حتى نشر  
الفجر رايته البيضاء في آفاق السماء ، فاستروح رائحة الأنس  
وشعر ببرد الراحة فأوى إلى مضجعه .

كذلك كان شأن قسطنطين دائماً ، وكذلك كانت أكثر لياليه  
مذ حدث ذلك الحادث العظيم .

---

(٤) الشار : أفتح العيب .

## الأزهار

دخلت ميلترا غرفة قسطنطين صباح ليلة من تلك الليالي الطويلة  
 الليلاء ويدها باقية من الزهر تريد أن تقدمها إليه ، فرأته مضطجماً  
 على كرسیه مستغرقاً في نومه ، وآثار الدمع طاهرة بين أهداب  
 عينيه ، وفي صفحتي خديه ، فرثت لحاله وجلست تحت قدميه  
 ترقب ببقظته رقبتي المجوسي طلعة الشمس من مشرقها ، فحمل  
 النسيم إلى رأسه نفحات تلك الأزهار ، فانتعش وتحرك في مكانه  
 وفتح عينيه فرأها تبسم وتهلل ، وقال : ميلترا ! قالت : نعم  
 يا سيدي ، نعمت صباحاً ونعمت جميع أيامك بكورها وأصائلها<sup>(١)</sup> ،  
 ثم مدت يدها إليه بالباقة وقالت له : فقد اقتطفت لك صباح اليوم  
 هذه الأزهار الجميلة التي تحبها أكثر من سواها لتسروحها فتروح  
 عن نفسك بريها<sup>(٢)</sup> همومها وأحزانها ، فتناول الباقة منها واستنشقتها  
 وتنفس تنفسه طويلاً ، ثم نظر إليها نظرة حلوة عذبة ، وقال لها :  
 أنعلمين يا ميلترا أنني أستنشق في هذه الأزهار التي تهدينيها

---

(١) البكور : صبح بكرة . وهي أول النهار ، والأصائل ، جمع أميل وهو  
 آخر النهار .  
 (٢) الريا ( بفتح الراء وتشديد الياء ) : العطر .



إليّ أنفاسك الأريجة العطرة ، وأن الذي ينعمني ويحييني ويرفه  
 عي همومي وآلامي في هذه الباقية إنما هو أريجك لا أريج الأزهار ؟  
 فارتعدت ميلزاً لأول كلمة حب سمعتها من فمه ، وطل قلبها  
 يخفق خفقاناً شديداً ، وملك الدهش عليها عقلها ولسانها فلم  
 تستطع أن تنطق بحرف واحد ، وظلت شاخصة إليه ببصرها ،  
 فاستمر في حديثه يقول : لقد كنت أطلب الموت قبل دخولك  
 وأتمناه تمناً شديداً حتى رأيته ورأيت هذا الجمال المتألّج في  
 عينيك وشممت أنفاسك العطرة المبعثة من أوراق إرهارك ،  
 فأحببت الحياة من أجلك . وأصبحت أتمنى أن أعيش لأراك  
 وأفضي بقية أيام حياتي بخابك ، فشكراً لك يا صديقي ، فأنت  
 الجمّة الوحيدة الباقية في سماء حياتي بعد ما غربت جميع نجومها  
 وكواكبها ، والشعاع المضيء الذي يبعث إلى أعماق سجي المظلم  
 الحالك فيبدد ظلمته وينير جوانبها ويملأ قلبي أملاً ورجاء . والواحة  
 المحصية الخضراء التي أُلجأ إليها كلما قطعت مرحلة في صحراء  
 هذه الحياة المحروقة فأناام تحت نخلها وأبرد ببرد مياهها ، قالت :  
 ليتني أستطيع أن أكون عند ظنك يا سيدي . بل ليتني أستطيع  
 أن أقاسمه هذه الهوم والأحزان التي تعالجها ، أو أحتملها عك  
 جميعها حتى لا أراك بين يدي إلا باسمًا متطلقاً في جميع آثائك  
 وساعاتك ، إني أملك الوضيعة المسكينة يا سيدي ، وليس لفناء  
 مثلي أن تسألك عن سبب همومك وأحزانك ، ولكنني أستطيع  
 أن أضرع إليك أن تسريها عن نفسك وتهونها عليك ، فأنت ر-  
 فاضل شريف ، وقد قلت لي قبل اليوم : إن الرجل الفاضل  
 الشريف يعيش من شرفه وفضيلته في سعادة لا يهنا بمثلها الملو

في قصورهم . قال : ومـر أين لك أنـفي رجل فاصل شريف ؟  
 قالت : لو لم تكن كذلك لما أحببتك ١ فانتسم قليلاً وقال : إذن  
 أنت تحبيني يا ميلترا ! قالت نعم يا سيدي ، أكثر من كل شيء  
 في العالم ، ولولا كرامة أمك عليك وجلال ذكراها في قلبك لقلت  
 لك إنها ما كانت تحبك في حياتها أكثر مما أحبك اليوم ! فأتـرق  
 قسطنطين لتلك الذكرى المؤلمة . ومرت بجبينه سحابة سوداء قاتمة ،  
 فرفع رأسه وقال لها : حسبك يا ميلترا لا تذكريني بأمي ، فما  
 أحسبها الآن إلا نائمة عليّ في قبرها ، تلعني وتستعدي ربهـا عليّ ٢  
 وتسال الله صباحها ومساءها أن يعاقبني وينتصف لها مني . واخجلناه  
 من نفسي يوم ألقاها في تلك الدار ويجمع الموقف العظيم بيني  
 وبينها ! فارتاعت ميلترا عد سماع هذه الكلمة ، وذهبت بها  
 الظنون كل مذهب . وطلت تنظر إليه نظراً عربياً حائراً ، وقد  
 بدأت تفهم ذلك السر المائل الذي أعياها أمره زمناً طويلاً وتـدرك  
 السبب في حزن قسطنطين هذا الحزن الشديد الذي يقيمه ويقعده  
 ويساور نفسه ويقلقها منذ قتل أبوه حتى اليوم . وكأنه قد ألم بما  
 دار في نفسها ٣ وتردد في خاطرها ، فظل ناظراً إليها بلهف  
 وشوق ينتظر أول كلمة تنطق بها بعد هذا الصمت الطويل انتظار  
 المتهم أول كلمة ينطق بها قاضيه بعد سماع دفاعه حتى رآها تبسم  
 وتهلل وتقول له : هوّن عليك الأمر يا سيدي ، ولا ترتب في  
 نفسك ولا في ضميرك فما أنت بمجرم ولا قاتل . ولكنك رجل

(١) تستدى . تستعث .

(٢) عرف ما يدور في نفسها .

شريف ولولا أنك كذلك لما أحبتك ، فمد يده إليها فتناول يدها  
وقال لها : أتعديني يا ميلترا أن تكنمي في صدرك كل شيء ؟  
قالت : نعم أعدك وعداً لا أخيس به . قال : وشيء آخر يا ميلترا .  
قالت : وما هو يا سيدي ؟ فأدناها منه وضمها ضمة خفيفة إلى  
نفسه . وقال لها : أنتسمين لي على الحب حتى الموت ؟ قالت :  
نعم يا سيدي أقسم لك . قال : بم تقسمين ؟ قالت : بكل ما تسكن  
به نفسك . قال : ضعي يدك على الخنجر وأقسمي به ، قالت :  
أفعل على شرط واحد . قال : وما هو ؟ قالت : أن تهديني إياه  
بعد ذلك . قال : وماذا تصنعين به ؟ قالت : أقتل به نفسي يوم  
يحل لك مكروه ! فاولها إياه . وهو يقول في نفسه ربما حل بي  
عما قريب ذلك المكروه الذي تتوقعين ! فوضعت يدها على الخنجر  
وأقسمت به أن تحافظ على حبه والإخلاص له حتى الموت ، فتهلل  
قسطنطين فرحاً وسروراً ، ونزعه عن خاصرته وعلقه في منطقتها ،  
ثم ضمها إلى صدره ضمة شديدة وقبلها في ثغرها قبله كانت عزاءها  
الوحيد عن كل ما مر بها في حياتها .

## مهریت

جرح الجندي «أورش» في إحدى المعارك فلزم بيته وتولت ابنته «أنا» معالجته ، وكان يزوره بعض أصدقائه من الجنود في الفينة بعد الفينة<sup>(١)</sup> فزاره في أحد الأيام الجندي «لار» ، وكان لا يزال حارساً لقصر القائد «برانكومير» والخدام الأمين لأرملته بازليد وثقتها المؤمن على جميع أسرارها ودخائلها ، فقال له «أورش» حين رآه : هل من جديد اليوم يا لازار ؟ قال نعم قد فشل جيشنا في الواقعة الأخيرة كما فشل في الواقعة الماضية والوقائع التي تقدمتها ، ولا أعلم متى تنتهي هذه الانكسارات ، فقد تمت عدتها حتى الأمس عشراً ، ولا أعلم ما يأتي به الغد ، أما القتلى والجرحى فهم كثيرون لا يحصى لهم عدد ، وما بيتك بالبيت الوحيد الذي تفرق فيه الدماء والدموع ، فني كل بيت من بيوت المدينة شاكون ومتألمون .

فقال أورش : لا ريب أن قسطنطين غير أبيه ، ولقد ففدنا بفقد ذلك الرجل العظيم قائداً كان خير القواد وأبرعهم وأوسمهم

---

(١) الحين بعد الحين .

علماً وتجربة وأعلمهم موارد الأمور ومصادرها ، لم يعلت النصر من يده في جميع معاركه أكثر من مرة أو اثنتين ، حتى مات في الواقعة الأخيرة وسيفه مصلت في يده ميتة البطل الشريف فمات بموته الظفر والانتصار ، وأدار الزمان وجهه عنا ، ولا يعلم إلا الله متى يقبل بعد إداره .

فقال له ابنته « أنا » وكانت جالسة تحت قدميه تضمد له جراحه : لقد قلت لي يا أبت قبل اليوم : ان قسطنطين قائد عظيم لا يشق له غبار ، فما الرأي الذي تراه فيه الآن ؟ قال نعم ، كان قائداً عظيماً في حياة أبيه وتحت لوائه ، أما اليوم وقد استقل بالرأي وحده وانقطع عن ذلك الوحي الذي كان يرشده ويهديه فقد انتقض عليه أمره ، وأصبح حائراً مضطرباً لا يدري ماذا يفعل ولا كيف يصرف وقائمه ومواقفه ؟ فقلت : إن جيشنا لم ينكسر قط في واقعة من تلك الوقائع التي تذكرونها كما تتوهمون لأنه لم يتخل عن مركزه ولم يسلم شعباً واحداً من تلك الشعوب التي يجرسها ، أما القتلى والجرحى وكثرتهم فهم في جيوش أعدائنا أكثر منهم في جيوشنا أضعافاً مضاعفة وحسبنا ذلك فوزاً وانتصاراً .

فقال لازار : لقد كانت خطة القائد ميشيل خطة دفاع محض لا يحول عنها ولا يتزحزح ، والجبال بين يديه تحميه وتحفظ مواقفه ، أما قسطنطين فقد أخذ نفسه بالهجوم على العدو في حصونه ومواقفه ، وترك الجبال التي تحميه من ورائه فكثرت القتلى والجرحى في جيشنا ، وهي خطة مخاطرة ومغامرة لا يركبها إلا القائد اليأس أو المجنون ، ولا أعلم أي الرجلين هو ؟

قال أورش : أحسبه يائساً قانطاً ، فلإني أشعر كما يشعر كثير من الناس أن سحته قد تغيرت منذ موت أبيه تغيراً عظيماً ، وأصبح حزيباً منقضاً لا تفارق الكتابة عينيه وجبينه ، ولم أر في حياتي ثائلاً حزن على فقيدته حزن هذا المسكين على أبيه . قال لازار : ولقد حدثني بعض خدم القصر وحراسه أنه يستيقظ من نومه في بعض لياليه صارخاً متفزعاً يستغيث ويستنجد كأنما هو يندم على جريمة ارتكبها ، أو يخاف شبحاً هائلاً مقبلاً عليه .

فقلت « أنا » : « إنكم نظلمون قائدنا ظلماً عظيماً ، فقسطنطين أفضل القواد وأشرفهم ، وما هو بجان ولا مجنون ، فنظر إليها لازار شزراً وقال : بل هو جان أو على وشك ارتكاب جريمة هائلة ، فقد رايتني منه مذ ولي قيادة الجيش عفوه عن الأسرى الذين يقدمون إليه ، وإنزاله إياهم منزلة الإكرام والإعزاز واهتمامه بشأنهم كأنهم ضيوف وافدون لا أعداء محاربون ، كما رايتني منه أكثر من ذلك إعتزاله الناس وانقطاعه عنهم جميعاً ، حتى عن زوج أبيه التي تحبه حب الأم ولولدها وقلدة كبدها ، فإنه منذ هجر قصرها وعاش في بيته الحديد الذي يسكنه اليوم لم يزرها مرة واحدة ولا دعاها إلى زيارته حتى الساعة .

فقلت « أنا » أكل أفعال قسطنطين قد أصبحت مريبة عندكم لا نحمل على محمل حسن ، إكرامه للأسرى المساكين وإشفاقه على ذلهم وضعفهم ؟ قال : ليس هذا رأيي وحدي بل رأي أكثر الجنود ، فقد أصبحوا يعتقدون أن قائدهم يقودهم إلى الموت الزوام عمداً لسر خفي يضره في نفسه ، وما أحسبهم قادرين

على احتمال هذه الحالة رماً طويلاً ، فاحتدمت « أنا » عيظاً وقالت : إن قسطنطين أشرف مما تطون ، وهل ترون محالاً أو غريباً أن يجزن المرء على أبيه بعد فقدّه ؟ ثم إلتفتت إلى أبيها وقالت له سذاجة ورقة : أقسم لك يا أبت لو أن مكروها أصابك من هذا الجرح الذي في فخذك — لا أذن الله بذلك وقدر — لحزبت عليك حزناً يصفر بجانبه حزن قسطنطين على أبيه ! فابتسم أبوها وضمها إلى صدره وقال لها : إننا لا نذهب في أمره يا بنية حيث ظننت ، ولا نتهمة بحيانة ولا بمالأة ، ولكننا نخاف عليه أن يكون قد نفذ اليأس إلى قلبه فضعضه ، وأن تكون نفسه قد حدثته بمسألة أعدائه وموآثاتهم ، فأعد لذلك العدة التي رآها واليأس هو الحديعة الكبرى التي يدسها الشيطان دائماً في نفوس الأمم الضعيفة التي يريد قتلها والقضاء عليها .

وهنا دخل بعض الجنود لقيادة أورش ، وتلاهم آخرون من بعدهم ، واشتركوا جميعاً في الحديث ، وأنشأ لازار ينفث سموم سعايته ووشايته في صدورهم حتى أجمعوا رأيهم على أن قسطنطين يخون أمته ويماليء أعداءها عليها ، وأن الرأي الصواب أن يرفعوا أمره إلى الملك ليأمر بعزاه عن القيادة ريعهد بها إلى غيره ثم انصرفوا .

## المرحبة

بينما كان قسطنطين جالساً صبيحة يوم في غرفته ، إذ دخل عليه حارس بابه يستأذنه لبازيليد أرملة أبيه . فانقبض صدره واشمأزت نفسه ، لأنه لم يكن رآها ولا أذن لها بمقابلته مذ مات أبوه حتى اليوم ، فأذن لها بعد لأي<sup>(١)</sup> فدخلت عليه وحيته وجلست بجانبه ، وأنشأت تعاتبه في انقضاذه عنها ووحشة منها وسوء رأيه فيها ، وتقسم له بجرمة ذلك الدفين الكريم الذي كان يحبه ويحبها أنها لا تضمر له في نفسها موجدة ولا حقداً ، ولا تعمل له بين جنبيها غير الحب الخالص والود المتين ، ثم قالت له : إنني برغم آلامي وأحزاني التي أعالجها مذ نزلت بي تلك النازلة العظمى حتى اليوم ، لم أر بداً من أن آتي إليك في هذه الساعة الشديدة عليك راجية أن أعينك عليها وأهون عليك أمرها ، وربما وجدت السبيل إلى خلاصك منها ، فالتفت إليها مندهشاً<sup>(٢)</sup> وقال : أي ساعة تريدني ؟ وما هي الشدة التي أنا

(١) بعد بلاء وشدة .

(٢) الفصيح : دهشاً ، أو مندهشاً .



فيها؟ قالت كأنك لا تعلم أن الخطر الذي يحيط بك عظيم جداً لا قبل لك باحتماله وأن جنودك قد أصبحوا يقومون عليك نعمة عطشى ويغضوبك بعضاً لا حد له ولا تحذركم بموسم شيء سوى نفس الطريق إلى الوصول إليك ليقتلوك ، فاصبر وجهه وقال : وماذا يقومون مي ؟ قالت : يقومون منك غطارتك هم في تلك المعارك الهائلة التي تكاد تفنيهم وتقضي عليهم ، وفشلك في جميع الوقائع التي قمت بها منذ وليت قيادة الجيش حتى اليوم ، وقد امتد بهم الحقد عليك إلى الظن بك فأصبحوا يعتقدون أنك خائن مائل للعدو ، وأنت ما سلكت هذه الخطوة المعوجة في حروبك إلا لتمكين الأعداء من احتياز الحدود واقتحام البلاد فانقص انتفاضة شديدة ، وأريد وجهه ، ونزت في رأسه سورة الغضب<sup>(١)</sup> وقال : من الذي يتهمني بالخيانة؟ قالت . جنودك ورجالك ، قال : إنهم كاذبون فيما يقولون ما في ذلك ريب إن كنت صادقة فيما تقولين ، قالت : ما كذبت عليك قبل اليوم ولا غششتك في النصيحة ، ولقد زادهم حقداً عليك وموجدة أن العدو قد اجتار الجبال ليلة أمس ، وربما لا يمر يومان أو ثلاثة حتى يكون قد وصل إلى أبواب العاصمة ، وسيصل يريديك الساعة فينقل إليك هذا الحر المحزون الأليم . فصرح صرخة عطشى دوت بها أرجاء الغرفة ، ووثب من مكانه وهو يقول : آه يا وطني العزيز ! وابتدر الباب يريد الخروج منه ، فأمسكت بيده واجتذبه إليها وقالت له : مهلاً ، أين

---

(١) تمحرك في نفسه الغضب الشديد .

تريد؟ قال : أدعو جنودي وأجمع من تفرق منهم في الثكنات والقللاع وأذهب بهم إلى الحدود للدفاع عن القلعة الكبرى . فالوطن في خطر عظيم ، قالت : لا تفعل فقد خرج الأمر من يدك ، واعلم أن جميع جنودك المقيمين في ثكنات المدبسة وأرباضها<sup>(١)</sup> قد أصبحوا متمردين عليك لا يطيعونك ولا يأتومرون بأمرك ! فلم يحفل بكلامها وأسرع إلى النافذة وأشرف منها على الساحة العامة وظل يصيح : أيها الجنود ! الفير العير ! الأهبة الأهبة !<sup>(٢)</sup> ، فما سمع الجند صوته ورأوا وجهه حتى هاجوا واضطربوا وأخذوا يصيحون داخل القصر وخارجه ، ليسقط الخائن ليسقط المجرم ! فظل يشير إليهم بيده يحاول إسكاتهم واسترعاء أسماعهم وهم مستمرون في ضجيجهم وصياحهم لا يهدأون ولا يفترون ، فعاد إلى مكانه يائساً متضعضعاً ليس وراء ما به من الهم غاية .

فدنت بازليد منه وقالت له :- قد علمت الآن أنني لم أكذبك القول ولم أحدعك وأنني لم أقدم إليك مقدمي هذا في هذه الساعة العصبية إلا لتخليصك وإنقاذك وإنقاذ الوطن وأبنائه ، فرفع نظره إليها مندهشاً وقال : أنت ؟ قالت : نعم أنا ، في الوقت الذي لا أجد فيه بجانبك من يأخذ بيدك أو يعينك على أمرك ، فأصغى لما أقول : إن الملك سيزور قصرك الساعة ليستنجد بك على دفع هذا الخطر الداهم وإن شئت فقل ليستعين بك

(١) الأرباض : الضواحي .

(٢) انفروا انفروا : تأهوا تأهوا .

على الاحتفاظ نتاجه الذي يضمن به ضنه جدير<sup>(١)</sup> مفار بشيء سواه ، وقد علم الجند ساعة حضوره فهم ينتظرونه في هذه الساحة ، حتى إذا طلع عليهم في موكبه هرعوا اليه<sup>(٢)</sup> ضاجين صارخين يتقدمهم جرحاهم وزمناهم<sup>(٣)</sup> ورموك بين يديه بتلك التهمة العظيمة التي يرددونها الآن ويصبحون بها في كل مكان ، فلما أن يصدقهم فقد هلكت هلاكاً لا نجاة لك من بعده ، أو يرتاب بهم فلا يرى بداً من أن يسلك سبيل الحكمة في مداراتهم ومدافعتهم ، فيأمر بعزلك عن القيادة والمهد بها إلى غيرك لإرضاء لهم ، وتسكيناً لثائرهم ، فإن فعل فقد انتشرت لك في الأمة قالة سوء لا تستطيع أن تمحو عارها عنك أبد الدهر .

فظل يرتعد ويضطرب ويردد بينه وبين نفسه : رب ماذا أصنع ، فالخطب أعظم مما أحتمل ! فاقتربت منه ووضعت يدها على كتفه وحنّت عليه حنو الأم على رضيعها ، وقالت له بتلك النغمة العذبة الحميلة التي قتلت بها أباه من قبل : نعم يا بني إن الخطب أعظم مما تحتمل ، ولم يبق بين يديك إلا أن تسلك تلك الطريق التي شرع أبوك في سلوكها قبل موته وعجز عن الاستمرار فيها إلى نهايتها فخرها وخسر حياته على أثرها ، فنظر إليها مندهشاً وقال : ماذا تريدن ؟ فصمتت لحظة ثم استنجدت قوتها وشجاعتها وقالت له : أتدري يا قسطنطين لم ذهب أبوك إلى شعب تراجان وجلس تحت القوس الروماني

(١) هرعوا ( بالبناء للمجهول ) أسرعوا .

(٢) الزمني ( كجرجي ) جمع زمن ( ككتب ) : وهو المصاب بملّة مزمنة .

في الليلة التي مات فيها ؟ فرجعت إلى ذهنه تلك الذكرى المؤلمة وقد بدأ يفهم ما ترمي إليه في حديثها ، فراح الأمر وهاله ، أنه تماسك وتجلد وظل ناظراً إليها نظرات جامدة ساكنة أشبه بنظرات الموتى في النزع الأخير ؛ فاستمرت في حديثها تقول : إنه ذهب إلى ذلك المكان ليستقبل الجيش التركي عند قدومه ويأذن له باجتياز الحدود والوصول إلى فيدين ، ولو فعل لنجى الوطن من خطر عظيم ، ولأطفا نار هذه الحرب التي تلتهم البلاد التهاماً يكاد يقضي عليها ، وكان اليوم ملكاً جالساً على عرش البلقان لا تمثالا أجوف منتصباً في الميدان ، ولكنه عجز في الساعة الأخيرة عن الاحتفاظ بقوته وعزيمته ، فما رأى سواد الجيش التركي مقبلاً نحوه حتى نسى عهوده ومواريثه ، وابتدر الرابية الأولى<sup>(١)</sup> فأشعل بارها وأيقظ الجيش من رقدته واستناره للأبهة والدفاع ، وما كفاه ذلك حتى جرد سيفه للقتال ، وخاض المعركة بنفسه ، وظل يقاتل حتى هلك .

فعجب قسطنطين لتلك الجرأة الغريبة التي لا يشتمل على مثلها صدر امرأة في العالم ولا رجل ؛ ثم قال لها مهدوء وسكون لا يعلم إلا الله ما يكمن وراءهما : وبعد فماذا تريدن ؟ فأطمعها فيه سكونه وهدوءه وخيل إليها أنه قد استخذي للأمر واستسلم . فقالت : إن العهد السلطاني لأبيك بملك البلقان لا يزال باقياً بيدي حتى الساعة ، وهو مديل بتوقيع السلطان وغنوم بنحتم آل « برانكومير » فلسنا في حاجة إلى تغيير حرف

---

(١) ابتدرا : سبق إليها .

منه أو كتابة عهد جديد ، وقد قابلت رسول القائد التركي ليلة أمس ؛ وافقت معه على كل شيء ، فكن أعقل من أبيك وأبعد منه نظراً ، واعلم أن الترك لا بد مقتحموا هذه البلاد وأخذوها ، أبطلوا أم أسرعوا ، فقد اجتازوا عقبة الجبال اليوم ، وسيجتازون بقية العقبات غداً أو بعد غد ؛ ما من ذلك بد ، فخير لك أن تهاديهم وتسالمهم وتتخذ عندهم يداً تفعلك لديهم غداً ، وأن تفتح لهم بيدك ما استغلق عليهم من أبواب البلاد بدلاً من أن يغلبوك عليها ، لتحفظ لنفسك بذلك العرش الذي هو عرشك وعرش أبيك من قبلك لولا طمع ذلك المختلس وفضوله !

إن الجنود يضربون ويصخبون ويوشك الملك أن يحضر فيرفعوا إليه أمرك ويهتفوا بين يديه بسقوطك وخيانتك ، فيأمر بالقبض عليك وسجنك ، فاغضب لنفسك وافعل ما أشرت به عليك لتستطيع أن تأمر أنت بالقبض عليه وسجنه بعد بضع ساعات ، ويدين لك البلقان ، من البوسفور إلى الأدرياتيك .

أما أنا فلاي لا أطلب جزاء عندك عن نصحي لك وإخلاصي إليك سوى أن تمنحني لديك منزلة الأم الخنون ، وتأذن لي أن أجلس على أدنى درجة من درجات عرشك ، أخدمك وأمدك برأبي ومشورتي وأستظل بظلال مجدك وشرفك حتى الموت ، ثم أخرجت من حقيبتها العهد السلطاني وأرته إياه ، فأخذ يقرؤه في يدها حتى آتمه ، فقالت له : قم الساعة وسافر إلى الحدود وقد جيشك بنفسك وتقهقر به كأنك تعمل ذلك مضطراً ، وانقل نفسك ووطنك من هذا الخطر العظيم

ها هي طبول الملك تقترب منا شيئاً فشيئاً ، واعلم أن قلم  
القدرة معلق الآن بين أصبعي الله ليكتب به في صفحات الغيب  
أحد الحكيمين : إما لك بالصعود إلى العرش ، أو عليك بالهبوط  
إلى أعماق السجون ، فأحسن الاختيار لنفسك ولا تكن عدوها  
الأحقق المأفون .

فرفع رأسه ونظر إليها نظرة نارية ملتهبة ، لو رسمتها  
ريشة المصور الماهر لاحرقت القراطاس الذي رسمت فيه !  
ثم قال لها مهدوء وسكون : قد قلت لي يا سيدتي منذ هنيهة إن  
أني قد ذهب إلى شعب تراجان ووقف تحت القوس الروماني  
ليستقل الجيش التركي عند قدميه ويأذن له بالمرور ، فخانه  
عزمه ونسي ميثاقه فلم يفعل ، وأنا أقول لك : إنك مخطئة في  
سوء ظنك به ، فإنه لم يزل متمسكاً برأيه في تلك الليلة محافظاً  
على عهده ، حتى حالت الحوائل بينه وبين الوفاء .

قالت : وما الذي طرأ عليه ؟ قال : طرأ عليه الموت ،  
فحال بينه وبين ما يريد قالت : وهل تعلم كيف مات ؟  
قال : نعم أنا أعلم الناس بذلك ، لأنه لم يكن حاضراً معه في  
تلك الساعة وفي ذلك الموقف سواي ، فارتعدت ونظرت إليه  
مندهشة وقالت له : ألم يمت قتيلاً بيد أعدائه ؟ قال : لا ، بل  
بيد أصدق أصدقائه بل بيد أقرب الأترباء إليه وأمسهم بهم  
رحماً<sup>(١)</sup> ، فطاش عقلها وجن جنونها وصاحت : ماذا تريد

---

(١) أسهم به رحاً : الصقهم قرابة .

أن تقول ؟ قال : أريد أن أقول : إنني أنا الذي قتلته بيدي  
جزاء له على خيانتة لوطنه ! قالت : أنت يا ولده وفلذة كبده ؟  
قال نعم ، وأنت التي وضعت في يميني ذلك السيف الذي قتلته  
به لأنك أهدمت نفسه وقتلت شعوره وأعربت خيانة وطنه ،  
وسلبته جوهرة الشرف الثمينة التي كانت نصيب ما ببر جنبيه ،  
وكانت أكرم الجواهر وأغلاها ، فلم أر بداً من أن أقتله  
لأستنقذ الوطن من يده ، فتألني ما شئت أيتها المرأة الشريرة  
وتعذبي ، وتجري كيوس الحسرة والندم على ما أفلت من يدك  
من أمانيك وآمالك . وحسبي انتقاماً منك على جريمتك التي أجرمتها  
إليّ وإلى أبي وإلى الطبيعة أن تعلني أنني أنا الذي خبيت آمالك  
وهدمت بيدي ذلك الصرح العظيم الذي أنفقت في تشييده  
أيام حياتك ؟

نعم أنا الذي قتلته بيدي واقتربت أعظم جريمة يقترفها  
إنسان في العالم ، ولولاك لما أقلمت على ذلك ، ولا خطر ببالي  
أن إنساناً في الوجود يقدم عليه ، ولو كان في استطاعتي أن  
أكشف أمرك وأهتك السر عن جريمتك لفعلت ، ولكنني لا  
أستطيع أن أفعل ، إشفافاً على سمعة ذلك الرجل المسكين الذي  
قضى عليه سوء حظه أن يكون شريكاً لك في حياتك ، وفي  
جرائمك ، فعيشي معذبة مثلي فريسة لآلامك وأحزانك ، واستغفدي  
ماء شئونك<sup>(١)</sup> حزناً على الذي فاتك والزوج الذي رحل عنك ،

---

(١) ماء جفونك .

واسهرى لباليك الطوال خائفة مرتعة من شبح الجريمة التي  
اجترمتها، وخيال الدماء التي سمكتها، وليلطر قلبك خوفاً  
وهلعاً كلما ذكرت أنك قد وضعت في يد الولد سيفاً ليقتل  
به الوالد، فمات الوالد قتيلًا وعاش الولد معذباً، ولنظل  
حياتك على طهر الأرض لنطول آلامك وأحزانك، حتى إذا  
نزل بك الموت نزل سهيكل يابس من العظم، قد أحرقه  
اللوعات، وأضوته الحشرات<sup>(١)</sup>، وأفترسته الهموم والأحزان.

وهنا سمعت ضجة عظيمة في الساحة، وهاتفون يهتفون :  
الملك ! الملك ! فاكتاب قسطنطين وتقض وجهه، وتهللت  
بازيليد وتطلقت وطوت وثيقة العهد برفق ووضعتها في جيبتها ،  
ثم قالت له : نعم ، إنني سأعيش يا قسطنطين حزينة باكية  
كما قلت ما من ذلك بد ؛ ولكني لا آذن لك أن تعيش يوماً  
واحداً بعد اليوم على ظهر الأرض حتى لا ترى بعينيك مصابي  
والآلامي ، وتشتت بهمومي وأحزاني ، فقد دسست لك الدبيسة  
في الجيش حتى ثار عليك ووضع في عنقك ذلك الغل الثقيل ،  
غل الخيانة الذي لا خلاص لك منه ، وسرى الآن بقية ثأري  
وانتقامي !

وهنا دخل الملك والجنود من حوله يتقدمهم لازار ، وهو  
يصيح وهم يصيحون من خلفه : إنه خائن يا مولاي ، قد مالا  
الأعداء علينا ، إنه أفنى رجالنا ، ورمل نساءنا ، ويثم أطفالنا ،

---

(١) الضاوي : المزيل الضيف ويقال أضواء المرض ، هزله وضعفه .



فأعدنا عليه<sup>(١)</sup> وانتقم لنا مته وللوطن ! والملك يقول : دعوني وشأني . لا أصدق شيئاً مما تقولون ، ثم التفت إلى قسطنطين ، وقال له : أيها البطل العظيم ؛ إن الوطن في خطر ، وقد جثت أستجد بك على دفع هذه النازلة التي نزلت بنا ، وسأكون في المعركة المقبلة جندياً من جنودك ، أقاتل بجانبك ، وأبارك خطواتك ، ولا تبتسح بما يقول هؤلاء القوم ، فإنهم لا يعلمون من أمرك شيئاً ؛ إنا لا نعرف اليوم تحت سماء البلقان بطلاً غيرك ، وما كنا نعرف قبل اليوم بطلاً غير أبيك ، ولا نضمرك لكما في قلوبنا غير الإجلال والإعظام لمكانكما من خدمة الوطن وحمايته والذود عنه ، أما الحبل الذي فارقت في تلك الوقائع الماضية فأبشرك أن عهد مراقبه لا يطول ، وأنه سيعود إليك بعد أيام قلائل بالوجه الطلق الحميل ، وستمحو بانتصاراتك المقبلة جميع آثار تلك الهزائم السالفة ، ثم التفت إلى الجنود ، وقال لهم : يا أبطال البلقان وحمانه ، لا تتخذلوا قائدكم ، ولا تحفروا ذمته<sup>(٢)</sup> فهو سيدكم اليوم ، وإن سيدكم بالأمس ، وأعلموا أنني لا أصغي إلى تهمة لا أعرف لها برهاناً ، ولا دليلاً

فصمت القوم صمتاً عميقاً ، وساد بينهم السكوت هنيهة ، وقد بدأت مراحل غيظهم وموجدتهم تفر وتناصر ، وهنا انفرج الجمع ، وإذا بيازيليد تتقدم رويداً كما ينساب من مكمنه

(١) أعدنا عليه : انصرنا ، أعدى يدي كالتى يلقى .

(٢) لا تحفروا مده .

الأرقم<sup>(١)</sup> نحو موقف الملك حتى مثلت بين يديه ، وقالت له بصوت عال سمعه جميع الحنود : أنا التي أقدم لك على سهمته الدليل والبرهان ! فدهش الملك عند رؤيتها ، وقال : الأميرة ؟ قالت : نعم يا مولاي ، أرملة القائد ميشيل برانكومير ، لأنني أتهم هذا الرجل بخيانة قومه وممالة أعدائهم عليهم ، وأقول لك إنه كتب بينه وبينهم عهداً على أن يفتح لهم أبواب البلاد في الساعة التي يريدونها ، فيمنحوه في مقابل ذلك عرش البلقان وتاجه ، وقد دعاني الساعة ليشاركني معه في هذه الجريمة التي يريد اقترافها ، ويسألني أن أساعده عليها ، فلم أر بداً من أن أرفع أمره إليك ؛ أما البرهان الذي تريده فما هو ذا ؟ ومدت يدها إليه بتلك الوثيقة فتناولها الملك ذاهلاً وأخذ يقرأها ، وهو يرتعد ويرتجف ، ويقول في نفسه : ماذا أرى ؟ إخلاء الحدود ! اجتياز الجبال ! العرش ! التاج ! ختم برانكومير يا للهول ويا للفتاة ! ثم نظر إلى قسطنطين ، فإذا هو نمثال جامد لا يتحرك ، ولا يطفرف<sup>(٢)</sup> ، فتقدم نحوه خطوة ، وقال : ما هي كلمتك يا قسطنطين ؟ فصمت ، ولم يقل شيئاً فالتفتت نازليدا ، وقالت له : أستطيع أن تنكر شيئاً مما أقول ؟ فأوثقت وثاقاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً ، إلا أنه رفع رأسه ونظر إليها نظرة غريبة مبهمة لم يعلم غيرها ماذا يريد بها ، ثم عاد إلى صمته وإطراقه ، فهاج الجند وأخذوا يصيحون : القتل القتل !

(١) الأرقم . أخست أنواع الأممي .

(٢) يطفرف . يحرك جفنه .

الانتقام الانتقام ! وطل الملك يشير إليهم بيده بدعوهم إلى  
السكون والهدوء حتى هدأوا ، فتقدم نحو قسطنطين خطوة  
ثانية ووضع يده على كتفه وسأله مرة أخرى : ماذا تقول يا  
قسطنطين ؟ دافع عن نفسك . فإن سكوتك حجة عليك .  
لا تصمت ، ولا تطرق ، وقل كلمة واحدة فأني أصدقك في  
كل ما تقول ، فاستمر في صمته وإطرافه . وهو يقول في  
نفسه . كيف أدافع عن نفسي وأي سبيل أسلكه إلى ذلك .  
والسبل جميعها وعرة شائكة . لا تقوى قدمي على اجتيازها .  
لأنني لا أستطيع أن أرى نفسي إلا إذا اتهمت أبي . وقد قتلته  
مرة فلا أقتله مرة أخرى ! ثم اتسم ابتسامة المتعصر . وقال  
في نفسه : قد كنت أطلب الموت بكل سبيل حتى جاءني يسعى  
إليّ بقدميه . فلم أخشاه وأرتاع منه ؟ فليكن ما أراد الله أن  
يكون . ثم رفع رأسه إلى الملك وقال له : ليس عندي ما أقوله  
لك يا سيدي فاصنع بي ما تشاء .

فصاح الجمهور : ليسقط الخائن ! ليقتل المجرم ! وهجموا  
عليه ليفتكوا به ، فاعترض الملك طريقهم وقال لهم : دعوه  
وشأنه . فإن أمره موكول إلى مجلس القضاء ، أما نحن فليس بين  
أيدينا إلا أن نفكر الآن في الطريق إلى الدفاع عن وطننا وحمائمه .  
ودفع هذه النازلة الملمة با . فسيروا با أيها الجنود الأنطال إلى  
ساحة الحرب ، وأنا قائدكم .

ثم التفت إلى الحرس وأمرهم بالقبض على قسطنطين والذهاب  
به إلى السجن حتى يفصل القضاء في أمره

فهمتف به قسطنطين وقال : لي كلمة واحدة أحب أن أقولها لك يا مولاي ، فذهب بازليد ، وارتعد لازار ، واشرب القوم بأعناقهم ، والتفت إليه الملك وقال : ماذا تريد أن تقول ؟ قال : أنت تعلم يا مولاي أنني جندي قديم ولدت في ساحة العرب ، وقضيت حياتي في ميادينها ، ولا أمانة لي في الحياة غير أن أموت فيها ، وأنت الآن قائد الحيش وصاحب الأمر والنهي فيه ، فأذن لي أن أسير في ركابك جندياً صغيراً ، لا قائداً ولا أميراً ، لأقاتل معكم حيث تقاتلون ، ولك عليّ عهد الله وميثاقه ألا أعود من تلك المعركة إلا منتصراً أو محمولاً<sup>(١)</sup> على الأعواد<sup>(٢)</sup> إلى حيث آوي إلى منزلي الأخير الذي لا رجعة لي منه ، عليّ أكرر بذلك عن زلتي التي زللتها ، وأنتقم من نفسي بنفسي ، فعجب الملك لأمره وظل يردد نظره في وجهه هنيئة وكأن نفسه كانت تحدته ببراءته وطهارته . إلا أنه لم يلبث إلا قليلاً حتى زوى وجهه عنه<sup>(٣)</sup> وقال له : لا أستطيع أن أذن لك بشيء ، فالموت في ساحة الحرب منزلة لا يناها إلا الأمانة المخلصون !.

فتنفس الجميع الصعداء<sup>(٣)</sup> وخرج الملك تحيط به جنوده وحراسه وهو يردد بينه وبين نفسه : وارجمته لك أيها القبيح المسكين ! المسكين !

فتقدم الحراس إلى قسطنطين فقيده . وجاءت بازليد فوقفت

(١) النمش .

(٢) روي وجهه : قبصه .

(٣) نفساً طويلاً .

بجانبه وقال بصوت حامت لا يسمعه سواه : نعم ، إني سأقضي ما بقي من أيام حياتي حرية ناكية متأللة كما قلت ، ولكني قد انتقمتم لنفسي ونفسي وحسي ذلك وكفى ، فلم يرفع نظره إليها احتقاراً واردة ، بل رفع رأسه إلى السماء وقال : قد كنت أسألك الموت يا رب في كل حين ، وأصرع إليك فيه ليلى ونهار ، فبعثت به إليّ ولكن في أفضع صورة وأهولها ، فامدد إليّ يد معونتك ورحمتك . لأستطيع أن أشرب الكأس حتى ثمالتها<sup>(١)</sup> وخذ بيدي في شدتي فقد تحلى الناس جميعاً عني ، وأصبحت أحتمل ما أحتمل من الآلام وحدي ، وليس بجانبي من يخفف لوعتي ، أو يمسح بيده دمة من دموعي .

فخرجت ميلترا من وراء ستار كانت مخبئة في طياته ، وتقدمت نحوه وجثت تحت قدميه الموثقتين وقالت له : لست وحدك يا مولاي فهأنذا ! فتهلل وجهه بعد عبوسه وقال : أحمداك اللهم حمداً كثيراً . ثم خرج مع الجنود يرسف في قيوده حتى وصلوا به إلى السجن فأودعوه وأوصلوا الباب من دونه ، فربضت ميلترا على عتبة الباب ربوض الكلب الأمين على قبر سيده الدفين ، وأشأت تندبه وتبكيه بكاء تهز له جسوانب الأرض وتتداعى له أركان السماء ! .

---

(١) النالة البقية الأخيرة في الكأس .

## التمثال

انتصر الملك في الواقعة التي حضرها وقاد فيها الجيوش  
 بنفسه انتصاراً عظيماً كان الفضل الأكبر فيه لتلك الروح الدينية  
 التي كان يثنها في نفوس جنده أثناء المعركة . فقد كان يمشي  
 بين الصفوف بطليسانه الأسود ، ولصليب في يده ، يهتف  
 باسم المسيح والمسيحية ، وينادي : دافعوا يا أبناء يسوع عن  
 دينكم وكنيستكم ، واعلموا أنكم إن غلتم اليوم على أمركم  
 فلن تقوم للصليب قائمة الدهر ، وهم يستبسلون ويستقتلون  
 ويصرون للموت صبر الكرام ، حتى برقت لهم نارقة النصر ،  
 فأطبقوا على جيوش العدو من كل جانب . وتفجرت أمامهم  
 إلى ما وراء الحدود وتخلت عن جميع المعابر والخيال التي اجتازتها  
 بالأمس ، فاحتفل الشعب بهذا النصر احتفالاً عظيماً  
 دام عدة أيام . ولم يكن للناس حديث فيه سوى حديث قسطنطين  
 وحريمته التي اجترمها والحزاء الذي سبقاه في سبيلها وكلهم  
 يتمنى مجدع أنفه<sup>(١)</sup> أن يشاهد مصرعه ، ويرى دماؤه تتدفق

---

(١) جدع الأذنين . نقله .

من بين لحبيه (١)

ولم يزل هذا شأنهم حتى دنا اليوم الذي يجتمع فيه مجلس القضاء للنظر في تلك القضية ، فذهب الملك ليلة المحاكمة إلى السجين في سجنه ، وخالاً به ساعة يسأله عن جريمته وشركائه فيها وأعوانه عليها . وحاول في ذلك محاولة كثيرة ، فلم ينطق بشيء ولا دافع عن نفسه بعرف واحد ، حتى عي الملك بأمره (٢) فأمر بإخراجه من السجن إلى الساحة العامة المقام فيها تمثال أبيه ، وأمر أن يشد بأغلال إلى قاعدة التمثال نكابة به وتمثيلاً ، ثم قال له : أنظر أيها الخائن ماذا بنى أبوك لنفسه من المجد ، ومادا صنعت يدك بذلك البناء الذي ابتناه ! وتركه وانصرف .

فلما انفرد بنفسه أطرق ساعة يفكر في شأنه وفي مصيره الذي صار إليه ، ثم رفع رأسه إلى التمثال ، وكان الليل قد هدا وسكن رنمت كل عين في فيه حتى عيون العسس والحراس ، فانشأ يناجيه ويقول :

هنيئاً لك أيها الرجل مجدك وعظمتك وتمثالك الشامخ الرفيع  
الذاهب يعلوه في آفاق السماء !

هنيئاً لك الصيت البعيد والشهرة الذائعة والشرف الخالد  
المسجل لك في صفحات التاريخ ؛ وأن الناس لا يمرون بتمثالك  
حتى يمشوا تحت قاعدته جثيهم تحت قدمي لإلهه المعبود ! .

(١) الحيان : منبتاً شعر اللحية على الجانين ، يريد عتقه .

(٢) تخيير الملك في أمره .

أترى بعد ذلك أنك مظلوم أو مغبون ، أو أن الضربة  
التي أصابتك من يدي قد حرمتك شيئاً في هذه الحياة تندب  
وتأسف عليه ؟.

لقد كنت في الساعة الأخيرة من أيام حياتك ، ولم يكن  
بينك وبين الانحدار إلى قبرك إلا بضع خطوات قصار ، فكل  
ما كان مني لك أنني أنقذتك من تلك الميتة الدنيئة السافلة التي  
كنت تريد لها لنفسك ، وقدمت لك بدلاً منها ميتة شريفة مقدسة  
ترممها العيون وتنقطع من دونها الأعناق ، وألستك تاحاً أشرف  
من ذلك التاج الذي كنت تطلبه وتسمى إليه وأجلستك على  
عرش أرفع من جميع عروش الأرض ، وهو عرش التاريخ !.

لا تستبق في نفسك شيئاً من الضغن عليّ ، ولا تضمر لي  
في قلبك وأنت في عالم الحقيقة المجردة الذي لا يخالطه كذب  
ولا رياء ، غير ما يجب على المريض المبل<sup>(١)</sup> أن يصمره لطيبه  
الذي شفاه من دائه ، وأنقذه من شقائه ، فإن كان لا بد لك  
أن ترى أنني أجرت إليك ووترتك<sup>(٢)</sup> فهذا أكفر عن  
جريمتي بأعظم ما كفر به مجرم عن جريمته !.

انظر يا أبت ماذا صنعت فعلتك التي فعلت بولذك .  
ها هو الغل يحيط بعنقه حتى كاد يخنقه ، وها هي القيود تعض  
قدميه وتدميها وها هو السيف مجرد فوق هامته لا تطلع الشمس

(١) أبل المريض : نجما من مرضه .

(٢) وتره : أصابه مكروه .



من مشرقها حتى يسقط عليها فيفصلها عن جنتها . وها هم  
الناس جميعاً رحالاً ونساء . كباراً وصغاراً . يلعبونه بألستهم  
وقلوبهم في كل مكان . ويضربون له من الحقد والغضاء ما  
لو امتد إلى جسمه لأحرقه وأحاله رماداً نارداً !.

.أنت المجرم وأنا المعاقب ، أنت الخائن وأنا المأخوذ  
بخيانتك ، أنت الممتع بعمه الشرف العظيم الذي لا تستحقه ،  
وأنا المتسريل بسربال الحياة الدائمة التي لا أستحقها ؟ لقد  
أخطأ القدر في أمرنا مرتين فرمك من حيث تستحق الرجم ،  
ووضعي من حيث أستحق الرفع ولو أنه أنصف في حكمه  
بيننا لأخذ كل منا مكان صاحبه ، فأصبح التمثال لي ، وأصبح  
السجن لك !

هنيئاً لك مجسّدك وشرفك وصيتك وسمعتك ، أهنتك لا  
تهنئة الهازيء الساخر ، بل تهمة الفارح المغتبط لأنك أي ورئيس  
أسرتي ، وسيد قومي وجيب إليّ جداً أن يعيش أبي عظيماً  
في حياته وبعد مماته ! .

إن آلامي يا أبت عظيمة جداً لا تستطيع أن تحتملها نفس  
بشرية في العالم ولكن بهوناها عليّ أنني أموت من أحلك وفي  
سبيل محبّدك وشرفك وأنني لم أخرج من الدنيا حتى رأيت  
تمثالك العظيم مشرفاً من علياء سمائه على جبال البلقان وهضاب  
كما تشرف الشمس من أبراجها على ماتحتها .

ما أنا بادم على ما كان ولا خائف مما يكون ، فلياً

الموت إليّ في الساعة التي يريدّها ، فقد قمت بواجبي لك  
ولبلادي ؛ وحسبي ذلك وكفى .

كان لا بد لي أن أقتلك ففعلت ؛ ولكنني قتلتك فيجب  
أن أقتل بك ، كلانا أجرم وكلانا لقي جزاء إجرامه .

أجرت إلى الوطن فانتقمته له منك وأجرت إلى الطبيعة  
فمن العدل أن تنتقم لنفسها مني ؛ فما ظلم أحد ما صاحبه  
ولا اعتدى عليه .

ارفع رأسك أيها الرجل نبيهاً وعجباً ، وزاحم منكميك  
أجرام السماء وكواكبها . فقد غسل انك بدمه جرمك  
وعارك ، فإن لم تكن شريفاً بنفسك فحسبك شرفاً انك والد  
الولد الشريف .

ولم يرل في مآجاته هذه حتى مضت هدأة من الليل ،  
فالتف بردائه ووصع رأسه على قاعدة التمثال وأسلم نفسه  
إلى نوم طويل .

## النهاية

اردحم الناس يوم المحاكمة في الساحة الكبرى ازدحاماً عظيماً ينتظرون عودة الملك من مجلس القضاء ليعلن حكمه أمام المتهم ، والمتهم هادئ ساكن تحت قاعدة التمثال لا ينتظر شيئاً ، لأنه يعلم أن الموت جزاؤه الحتم . وقد وطن نفسه عليه فلم يعد يحفل به .

ولأنهم لذلك إذ أقبل الملك تحيط به حاشيته ، فاشترأت إليه الأعناق لسماع كلمته . ولم يزل سائراً بين الصفوف حتى وقف أمام المتهم فنظر إليه نظرة طويلة ، ثم صاح بأعلى صوته : يا قسطنطين برانكومير إن الجريمة التي اقترفتها عظيمة جداً لا يفي بها قتلك وسفك دمك لذلك رأي مجلس القضاء أن يحكم عليك بالحياة بدلاً من الموت ... فقاطعته الجماهير : الموت الموت ! لا بد من قتله ! لا يمكن أن يعيش ! فأشار إليهم بالهدوء والسكون حتى يسمعوا بقية كلامه ، فهدأوا ، فاستمر يقول . وان تظل طول أيام حياتك مقروناً بأغلاك هذه إلى قاعدة تمثال أبيك ، ليردد وجهه في وجهك ليك ونهارك ، فتموت في مكانك حياء منه وخجلاً ، وأن يؤذن لكل مار

بك من علية الناس وغوغأهم أن ييصق على وجهك ويصفعك  
على قذالك ، وينال منك ما يشاء إلا أن يسلك حياتك .

فصاحت الجماهير : يعيش الملك يحيا العدل ! يسقط الخائن ،  
وظلوا يرددون هذه الكلمات وأمثالها وقتاً طويلاً .

هنا ذرفت عينا ذلك الرجل العظيم الذي لم يلك في يوم من  
أيام حياته لضربة سيف ، أو طعنة رمح ، أو رشقة سهم ،  
وعلا صوت نحيبه ونشيجه كما تفعل النساء الصعيفات في مواقف  
حزين وتكلمهن ، وما كان مثله من يبكي أو يذرف دمعاً  
واحدة من دموعه لو أن الذي كتب له في صحيفة الغيب من  
الشقاء كان الوقوف بين السيف والتطع<sup>(١)</sup> ، أو السقوط بين  
آلات العذاب تنال من جسمه وأطرافه ما تشاء . ولكنه  
الشرف ، شديداً جداً على صاحبه أن ترل به نارلة مذلة ،  
أو يتصل به ظفر جارح من أظفار الهوان فإذا شعر بشيء من  
ذلك هاله الأمر وراعه ، وخارت عزيمته . ووهنت قوته ،  
فبكى بكاء الضعفاء ، وأعول إعوال الساء . ولقد رضى  
قسطنطين من حطه من الحياة بالموت فراراً من العار الذي  
لحقه ؛ وهرباً من نظرات الناظرين إليه ، وموجدة الواحد  
عليه ، أما وقد علم أنه سيعيش والعار معاً رقيقين متلارمين  
لا يفترقان ولا يتفصلان ، فلم يبق بين يديه سبيل غير البكاء .

---

(١) التطع : فرش من جلد كان يسطر للمحكوم عليه بالموت لدهج فوقه وهو  
بين السيف من فوقه والتطع من تحته .

فدكى ما شاء الله أن يفعل . وأخذ يردد بينه وبين نفسه : يا  
للبؤس ! ويا للشقاء ! لقد استحال عليّ كل شيء حتى الموت !

ثم رفع طرفه إلى السماء ، وقال بصوت خافت متقطع :  
رحمك اللهم وإحسانك ، فقد أصبحت عاجزاً ضعيفاً لا أملك  
من شئون بصي شيئاً فامدد إليّ يد عنايتك ولطفك لأستطيع  
أن أتمم واجبي إلى النهاية !

وهنا وقف لارار فوق هضبة مرتفعة — وكان لا يزال  
رأس الفتنة وشعلتها — وأخذ يصرخ بصوت عال قائلاً : إن  
رأى مولانا الملك أن يأذن لنا بتنفيذ أمره الساعة .. فقد أوشكت  
صدورنا أن تنفجر ، فصاح الجمهور من ورائه صيخته ،  
ودعوا بمثل دعوته ! فاصفر وجه الملك وارتحفت أطرافه  
ارتخافاً خفيفاً ، ثم قال بصوت خافت متهافت : لكم ما تشاءون !  
وتحول من مكانه يريد الإنصراف .

وهنا برزت ميلترا من بين الجماهير ، واندفعت نحو  
قسطنطين تسبق المدققين إليه ، وهي تقول : فليبق لك أيها  
المسكين على الأقل قلب واحد يرحمك ويعطف عليك !  
وضمته إلى صدرها كأنما تريد أن تقيه بنفسها ، فسمع الملك  
صوتها فالفت فراها ، ولم يكن يعرف من شأنها شيئاً ، فعجب  
لأمرها وأشار إلى الجماهير بالسكوت حتى يعلم ما خطبها ،  
ثم مشى نحوها وقال لها : أتعلمين أيها الفتاة من هذا الذي  
نحمن ، وما جريمته التي اقترفها ! فرفعت رأسها إليه وألقت

عليه نظرة الليث في عرينه . وقالت له : لا أعلم من أمره شيئاً سوى أنني أحبه ، ولا آذن لأحد أن يناله بمكروه وفي بقية رمق من الحياة ! قال : إنه ارتكب جريمة الخيانة الكبرى للأمة والوطن ، وقد حكم عليه مجلس القضاء بالتعذيب ، ولا بد من إنفاذ حكمه ، قالت : إن الحب فوق العدل وفوق القانون وفوق كل شيء في العالم فمزقوني إرباً إرباً لتستطيعوا أن تصلوا إليه .

فلمعت في ثغر قسطنطين انتسامة في وسط هذه الدحنة الحالكة<sup>(١)</sup> من الهموم والأحزان . وضمها إلى نومه وقال لها : شكراً لك يا ميلترا .

فقد أحييت نفسي الميتة ، وسريت عني همومي وآلامي ، ذودي عني يا صديقتي وصوفي وجهي من العار الذي يريدون أن يلبصقوه به فلم يبق لي في العالم من يرحمني ويعطف عليّ سواك ! .

وأخذت الجماهير تصيح : اقتلوهما معاً . مزقوا جسيميهما بالسيوف وانثروا أشلاءهما في الفضاء .

ثم تدافعوا نحوهما تدافع الصخور الهائلة من أعالي الجبال ، فصاحت ميلترا : أيتها الوحوش الضارية . والخلائق الساقطة ، مهما كثر عددكم ، وعظمت قوتكم ، فإنكم لن تستطيعوا

---

(١) الظلمة الحالكة .

أن تصلوا إليه أو\* تلحقوا به إهانة من الإهانات التي تضمرونها في نفوسكم ، فإن أيتّم إلا أن تفعلوا فاعلموا أنني أنا الفتاة الضعيفة المسكينة قادرة على أن أخلصه من أيديكم ! فلم يخفلوا بكلامها ، ولم يفهموا غرضها ، واستمروا في اندفاعهم وتدفعهم .

وهنا حدث ذلك الحادث المائل الذي شخصت له الأبصار وذهلت له العقول وجمدت لمنظره الدماء في العروق ، فقد علمت ميلنزا أن القضاء واقع لا مفر منه ، وأن القوم لا بد بالغون من قسطنطين ما يريدون ، وأن لا طاقة لها بحمايته والذود عنه ، وهالها هولاً عظيماً وكبر في نفسها أن ذلك الوجه الشريف المتألى بنور الفضيلة والكرم والطهارة والبراءة يصبح هدفاً دنيئاً لمؤلا الغوغاء الثائرين ، يلطمه من يلطم ويصق عليه من يصق ، فلما أصبحوا على مقربة منها ، ولم يبق بينهم وبينها إلا نضع وثبات ، حنت عليه وهمست في أذنه قائلة : في استطاعتك يا سيدي أن تنجي نفسك بكلمة واحدة تعترف فيها بكل شيء ! فرفع طرفه إلى السماء ، ثم ألقاه على تمثال أبيه . ثم نظر إليها نظرة دامعة حزينة وقال : « لا أستطيع » !

فجردت من منطقتها خنجرها الذي كانت قد استهدته إياه فيما مضى . ورفعته في الهواء ثم طعنته به في صدره طعنة نجلاء ، وهي تقول : مت شريفاً أيها الرجل العظيم كما عشت شريفاً ، وسأبعثك إلى سمائك التي تصعد إليها ، فسقط مدرجاً

بدمائه ، وهو يقول بصوت ضعيف متقطع : شكراً لك  
يا ميلترا .

وكان القوم قد بلغوا موقفهما ، فرفعت الخنجر مرة  
أخرى وطعنت نفسها فترنحت قليلاً ثم سقطت على مقربة منه ،  
وكان لا يزال يعالج السكرة الأخيرة ، ففتح عينيه فراها ،  
فأخذ يسحب نفسه سحماً حتى بلغ مصرعها ، فألقى يده عليها  
وظل يجذبها نحوه كأنما يحاول أن يضمها إلى نفسه فلم يستطع ،  
فسقط رأسه على صدرها فشرعت به فضاءت ما بين شفثيها  
ابتسامة ضئيلة لم تلبث أن أنطفأت وتغلغت في ظلمات الموت .  
وظلا على هذه الحالة حتى فاضت نفساهما .

فأثر هذا المنظر الرهيب في نفوس الجماهير ، وسكنوا  
في مواقفهم سكوناً عميقاً لا تتخلله نامة ولا حركة ، وظلوا  
على ذلك ساعة حتى نطق الملك بصوت خشن أجش تخالطه  
رنة الحزن والأسف قائلاً : أيها المسيحيون صلوا جميعاً  
لهذين اللائسين الشقيين ، واسألوا الله لهما الرحمة والغفران .

ثم رفع قلنسوته وجثا على ركبتيه ، ورفع القوم قبعاتهم  
وجثوا حول الجثتين وأخلدوا يتلون صلواتهم بنغمة حزينة  
موثرة ، كأنما هم سيكون عزيزاً عليهم ، أو شهيداً من شهدائهم ،  
وما فعلوا غير ذلك لو كانوا يعلمون ...

• • •



ظلت هذه الحقيقة مجهولة لا يعلمها أحد من الناس خمسة  
وثلثين عاماً ، حتى حضر « بازليد » الموت ، فظلت تهدي  
بها في مرضها وترددها في يقظتها وأحلامها ، وتتألم لذكرها  
ألماً شديداً على مسمع من كاهنها وعوادها ، حتى فاضت روحها ،  
فعلم الناس ولكن بعد عهد طويل ، وبعد أن تبدلت شئون  
البلقان غير شئونه - أن « قسطنطين برانكومير » أشرف  
الناس وأفضلهم ، وأعظمهم وطنية وإخلاصاً ، لأنه ضحى أباه  
في سبيل إنقاذ وطنه ، ثم ضحى نفسه في سبيل إنقاذ شرف أبيه ،  
فبلغ في وطنيته وشرف نفسه الغاية التي لا غاية وراءها

« تمت »

## الفهرس

صفحة	
٥	الإهداء إلى البطل المصري العظيم سعد زغلول . . . . .
٧	مقدمة لحضرة الكاتب الشهير .. حسن الشريف . . . . .
١٥	مقدمة . . . . .
١٧	الجلاسوس . . . . .
٢٤	قسطنطين . . . . .
٣٨	التأج . . . . .
٤٣	المؤامرة . . . . .
٤٩	الأمل . . . . .
٥٣	السر . . . . .
٥٩	الجريمة . . . . .
٧٩	الضمير . . . . .
٨٢	الأزهار . . . . .
٨٦	الحديث . . . . .
٩٠	الدسيمة . . . . .
١٠٤	التمثال . . . . .
١٠٩	النهاية . . . . .



دار اشرق العربي

تقدّم بكل فخر للعالم العربي الكاتب الخالد

مصطفى لطفي المنفاوطي

الذي اغتدى بأدبه ملايين القراء في كل بلد عربي

آما مصطفى لطفي المنفاوطي

النظرات ٣١/١ جزء خلف

المبرات خلف

الفصيلة خلف

الساعة خلف

ماجدولين خلف

في سبيل الساعة خلف

مختارات المنفاوطي خلف